سلسلة أوراق من التاريخ

١٣

اليتامى في التاريخ

شاكر مصطفى

النار تحرق الخشب

ولكن

تجعل الحديد فولاذا

رَيْعُ الدَّار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهوريّة العربيّة السوريّة

دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ـ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠

الطبعة الثانية - ١٩٩٧

سلسلة أوراق من التاريخ

١٣

اليتامى في التاريخ

شاكر مصطفى

كلمة أولى

من تراه يصنع التاريخ؟

هل هي الأقدار؟ أم هم الأفراد؟ أم المجتمع والظروف الاجتماعية الاقتصادية؟ أم الصدف؟ أم هو خليط من كل أولئك ومن أشياء أخرى؟ أسئلة تشبه أن تكون ميتافيزيك التاريخ. ولكنه الميتافيزيك الذي يجد لكل سؤال من الأسئلة جواباً مقنعاً أو شبه مقنع ومن أمثلة التاريخ نفسها. فهذا البحر الطامي الذي يبتلع كل شيء أغرق الكثيرين ومايزال يغرق الكثيرين. مايسمى بفلسفة التاريخ كلها إنما هي هوامش على إشارة الاستفهام الكبرى المرسومة على بابه. وما نطرح من السؤال عن دور الأيتام في تحريكه ليس أكثر من دعابة بين الحقيقة والخيال، ليس أكثر من لعبة فكر...

أتراها تفتح بعض المغاليق؟

شاكر

الأيتام ... هل يقودون العالم ؟

هذه الأحاديث ليست فكرتها من عندي. إنها بعض من أحاديث صاحب من أصحابي اعتدت منه أن يثير المشكلة التاريخية وأن يترك علي حلها أو الدوران حولها كالنحل النهم!.

كنا جلوساً إلى المذياع ويقرأ قارئ القرآن الكريم قوله: ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى. فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر** ﴾ - وما كاد القارئ ينهي الآية - ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ حتى قام صاحبي فأغلقه وهو يردد «صدق الله العظيم، صدق الله العظيم»، ثم القى بالسؤال - المشكلة فجأة أمامي..

- ألست معي في أن الأيتام هم الذين يقودون التاريخ؟

وألجم لساني ولم أجب، لم استطع الإجابة المفاجئة، وفي حين كنت استجمع ما في جبهتي، وما وعى الصدر من أخبار التاريخ ومتناثر الروايات كان صاحبي ينظر إلي في ابتسامة الساخر وفي زاوية فمه ألف تحد.. هو تحدي من وضع العقدة في المنشار!..

كنت أدير كلمة اليتيم في خاطري، وأخبار الأيتام وما فعلوا في التاريخ وقبل أن أخرج بالصمت عن لا أو نعم قال صاحبي:

- تدبر إن شئت تاريخ الأنبياء والرسل وأصحاب العقائد المسيطرة والفلسفات.. اجمع إليك أصحاب المشاريع الكبرى، تذكر، تذكر.. أليس يهمل المؤرخون هذا العامل المحرك للتاريخ: اليتيم!..

ثم كمية هائلة من الأيتام تتصدر التاريخ، ألست تذكر الرسول الأعظم محمد بن عبد الله؟ من ذلك الرعيل الذي قاد الأجيال البشرية، المسيح عيسى بن مريم، وموسى الكليم، ومنه أيضاً بوذا وكونفوشيوس.. لقد ترك جميع هؤلاء:

... في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

ولكني لست أعنيهم وحدهم.. أعني الآخرين. أعني الذين تسنموا قمم الفن والفلسفة والعلم. وإنك لواجد منهم المئات فمتأكد من صحة الفكرة فمتسائل مثل تساؤلي:

- ما أبعاد تلك الطاقة الخاصة الخارقة أحياناً والتي توجد لدى الأيتام؟ وتسمح لهم باختراق العادي والمألوف؟ من أين تأتي القوة مثلاً إلى: جنكيزخان، وحمورابي، ومحمد علي باشا، وبوليفار، ودي فاليرا، وآتيلا، وموتسوهيتو، وأخناتون، وقمبيز، وديفاليرا، والسلطان أكبر، ودانتون، ونيرون، وكلهم أيتام..

وقلت مقاطعاً:

- الأحرى أن تسأل عن أبعاد النقص لدى اليتيم. عن مدى شعوره بالعدم، بالعزلة؟ عن إحساسه المؤسي الفاجع بأزمة الهوية، وأثر ذلك كله في بروزه التاريخي! وترد في هذا المجال أسماء رعيل لاينتهي من بينهم أيضاً أتاتورك، ولينين، وستالين، وهتلر، وخروتشيف، وغاندي، وتشان كاي شيك، وعبد الناصر، ونيكسون وكلهم بدورهم أيتام الأم أو الأب..

وأجاب صاحبي:

- السؤال سؤال واحد. وإن اختلفت الزوايا التي ننظر منها. أن الطاقة التي قصدت إنما منبعها من هذا الشعور الفاجع بالعزلة وبالنقص..

الهام أن تتحقق في التاريخ، ولديك بحور منه بعد بحور، من هذه الفكرة. أم لست تراها تستحق التوقف؟..

ولم استطع مرة أخرى صوغ الجواب؟ أو لم ارد أن افعل فقد كنت أطارد فكرة أخرى حول أولئك الذين هم في حكم الأيتام أيضاً ممن هجر أحد أبويهم الآخر وغاب؟ مثل موسوليني، وفرانكو، وماوتسي تونغ، وتيمورلنك، وكليمنصو.. وكثيرين، وحول الأبناء غير الشرعيين الذين لم يعترف بهم آباؤهم أمثال كاسترو، وسوكارنو، وقيصر بورجيا، وخوان بيرون، وإيفابيرون، وويللي براندت، وواشنطن وبيسارو.. وكثيرين.. ليس اليتيم في فقد الأبوين أو أحدهما فقط. ولقد يكون اليتيم وهما موجودان لكن في حالة طلاق أو انفصال أو هجر. ولقد يكون في حالة الأبناء غير الشرعيين التعساء!.. واليتيم ــ في اعتقادي ــ هو الذي يشعر بسبب ظروف ولادته أو نشأته بأنه غير مندمج في المجتمع التاريخي للتقاليد التي تصوغ الفرد العادي في المجتمع يشعر أن ثمة لبنة ناقصة في السلسلة البيولوجية والتاريخية التي تربطه بالمجتمع.. وهكذا نرى اليتامى يظهرون ـ حسب النسيج الفكري أو السلوكي الفردي لهم إما هجوميين أو في حالة انكماش سلبية تجاه المجتمع أو تجاه المصير الذي لم يسمح لهم بأن يبلوروا العلاقة الطبيعية (أبوين ← ابن) تبلوراً طبيعياً حتى النضج بالمعنى الكلاسيكي للكلمة.

هل نزعم أن اليتامى غير أسوياء؟.

ما إلى هذا نقصد أبداً ولا نزعمه. ولكنهم ـ في نوع من التعويض ـ يحاولون الوصول إلى هوية متينة تقوم عليها شخصيتهم. لذلك فهم أبداً بحث عن مكان لهم في المجتمع. التبرير الوجودي يقتضي من هؤلاء أن يخرجوا أنفسهم من الغرق (بسبب موت أو هرب أو طلاق أو هجر أحد آبائهم) أن يتخلصوا من هذا العدم الوجودي ليصبحوا شيئاً: زعماء سياسيين أو دينيين أو ثوريين أو روحيين. حسب الظروف والبيئة.

بذلك فقط يعوضون ولا نقول ينتقمون لشعورهم الاجتماعي. ولعلهم في بحثهم عن الخال، يختلط لديهم البحث عن هوية دينية مع البحث عن هوية قومية أو سياسية. ألسنا نذكر بوليفار أو غاندي أو ماوتسي تونغ؟

وعطف الفكر بي عطفة أخرى إلى القرآن الكريم وموقفه من اليتيم. إن الذي أثار المشكلة في جبهة صديقي هي آية.. ونظرت في الآيات وإذا بي في غرق آخر: إن الله يوصي باليتيم في ثلاث وعشرين آية:

- يوصي بحفظ مال اليتيم ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلْماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً**﴾. ﴿**ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده..**﴾ كرر القرآن ذلك مرتين. كما قال في آية رابعة: ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم**﴾.

- ويوصي بعدم قهره: ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر**﴾.

- ويوصي بإكرامه والإحسان إليه: ﴿**وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى**﴾ ﴿**كلا بل لاتكرمون اليتيم**﴾. ﴿**وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً**﴾.

- كما يوصي بإطعامه فمن: ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا**﴾ ﴿**أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة**﴾.

- ويوصي بالقسط لهم ﴿**وأن تقوموا لليتامى بالقسط**﴾.

- ويوصي بالصدقة عليهم ﴿**قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين**﴾.

- ويوصي بإيوائهم: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى**﴾.

ويوصي بإصلاحهم: ﴿**ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير**﴾.

- ويوصي خاصة برعاية النساء منهم: ﴿**قل الله يفتيكم فيهن. وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ماكتب لهن..**﴾

ـ وأخيراً يعطيهم القرآن الكريم من خمس غنائم المسلمين: ﴿**واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين**﴾ ذكر ذلك مرتين.

وغرقت في الفكر بعد هذا الكم الكبير من التوصيات القرآنية التي تعبر عن وجود مشكلة في الأمر وتطلب حلها بأقوم السبل.

صاحبي ترك المشكلة تضج من حولي وبين صدغيَّ وذهب..

وجلست إلى أوراقي أقلبها وأفكر، بحثاً عن الجواب: هل تراه حوَّل الأمر من مشكلة فردية عادية إلى مشكلة تاريخية زائفة؟! أم هي حقيقة من حقائق التاريخ الإنساني؟ لست أدري..

الأيتام مرّة أخرى

بعد يومين اقبل صاحبي يسعى قال:

ـ هل وجدت جواباً لسؤالي عن الأيتام الذين يسرقون التاريخ؟.

قلت:

ـ قد اكون..فأنا لا أعتقد أن الأفراد يؤثرون في التاريخ إلا بقدر ما تسمح لهم الظروف الاجتماعية والسياسية.

لو قتل نابليون مبكراً على جسر أركول فالتاريخ ما كان ممكناً أن يأخذ طريقاً آخر بشكل جذري. كان لابد أو على الأقل كان ممكناً أن يظهر نابليون آخر. العبقرية الفنية هي نتاج الشروط الاجتماعية التي تسمح بتفتحها أو تخنقها.. كارليل في كتابه الأبطال جعل التاريخ يدور حول الأفراد الأبطال.. ولكن هل هؤلاء الأفراد والأبطال نتاج أنفسهم أم نتاج المجتمع الذي ينغمرون فيه حتى الأذقان.

فقال صاحبي:

ـ لقد ابعدت عن قصدي جداً، لست أناقشك في هذه البديهية التاريخية التي تحسبها من القوانين الثابتة. إنما أريد أن تتعمق في نقطة واحدة مثيرة هي أثر اليتم في قفز هذه الكمية الهائلة من الأيتام إلى القيادات الإنسانية.. خذ عندك مثلاً: خلال مائة سنة من تاريخ إنكلترا ما بين رئاسة ويللنغتون للوزارة في القرن الماضي وبين رئاسة تشمبرلين

في مطلع الحرب العالمية الثانية توالي على رئاسة الوزارة أربعة وعشرون رئيساً كان ١٥ منهم من اليتامى أي٦٢,٥٪ والمثير في الأمر أن نسبة اليتامى في الشعب الإنكليزي لاتجاوز في تقديراتها ١-٢ بالمائة!! ثم من ذا الذي جاء بعد تشمبرلين؟ جاء تشرشل وهو كاليتيم لأنه ابن لأبوين هجر أحدهما الأخر أيضاً..

اعترضت صاحبي قائلاً:

- رويدك أني أخشى هذه التعميمات المتسرعة، إنا لانجد بالمقابل في رؤساء الولايات المتحدة مثلاً في هذا القرن العشرين سوى يتيم واحد هو هربرت هوفر(Hoover) مع أن « للفردية» مكانها البارز في المجتمع الأمريكي. ولكن دعنا نتفحص الأمر من بعض القرب: أن مفهوم اليتيم قد اختلف في الماضي كثيراً لدى الناس وما يزال يختلف بينهم تبعاً للمجتمعات وتنظيمها ولألوان الثقافة فيها وطرق التربية والسلوك..

وقاطعني صاحبي مهدئاً وقال:

- ومع كل ذلك.. فالتاريخ بيني وبينك!! ليست المقولة التي أطرح بالمقولة الميتافيزيكية التي ينتهي فيها الجدل وراء الأفلاك، ولا بالمقولة التي تحتاج نظرية النسبية لكي تؤيد أو تدحض، أنها مجرد فكرة بسيطة!!..

الأيتام يملؤون القمم السياسية والدينية والفنية والأدبية في التاريخ. وإنما يتجاوزون إليها على عكاز من السياسة أو الدين أو العلم أو الفن. كل منفذ إلى عالم الناس المكتملين الأسوياء يصلح لديهم لتجاوز العقدة. ولقد يتراءى لهم أن السياسة أو الدين أو العلم أو الفن هي الوسيلة المناسبة للعبور. هي أكمل الطرق وأنسبها لخلق واقع آخر أو إعادة خلقه أو لتحوير الواقع غير المقبول والانتقام للحظ السيء.

وقد لا يتحول التجاوز إلى انتقام إلا في حالات الأطفال غير الشرعيين. إنهم وقبل أن يكتمل وعيهم أحياناً يصبحون أكثر هجومية

إن لم نقل طموحاً و.. حقداً. على هذا الضوء يجب تحليل حوان بيرون مثلاً، وويلي براندت، وسوكارنو وتيير وتوريز وكاسترو وماكدونالد:.. وأمثالهم من الأطفال غير الشرعيين.

وقلت لصاحبي:

نظرية العلاقة بين اليتم والبروز الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي أو الفنى نظرية عامة غامضة. وأحسبها لا تنطبق على حالات كثيرة جداً. فكم ذا عرفنا من يتيم لم يستطع أن يتجاوز شرطه فهو على السلبية والانكماش إن لم نقل المسكنة! كارليل الذي أكد في كتابه المشهور (الأبطال) سنة١٨٤١ أن التاريخ العالمي هو تاريخ الرجال العظام ذكر أن بين هؤلاء وبين روح تطور الإنسانية صلات كثيرة.. ولكنه لايعبر باليتم على أنه إحدى هذه الصلات.

والماركسيون يرفضون هذا الطرح الميتافيزيكي للأمور، لا يرفضون دور الأفراد في التاريخ ولكنهم يقلصونه إلى الحد الأدنى. لا يرفضون الصدفة والتفرد ولكنهم يرون أن الفرد لا يؤثر في التاريخ إلا بقدر ما تسمح له الظروف بشكل جذري. لو انتصر مونتغومري في (العلمين) فالتاريخ ما كان يمكن أن يأخذ طريقاً آخر انقلابياً. العبقرية العسكرية، كالفنية والسياسية والعلمية والدينية هي نتاج الشروط الاجتماعية التي تسمح بتفتحها. فهل ثمة علاقة ما بين هذه الشروط وبين اليتم؟ إن لم تكن بالعكس قوة ضاغطة عليه، أو موجهه ضده؟.

وأسرع صاحبي معارضاً:

ـ العكس تماماً هو الصحيح. اليتيم يحرر القوى الدافعة والتي كانت مضغوطة مقاومة من قبل الأنا. الأسى والشجن والانسحاق التي تولدها حالة اليتم تثير ردود فعل هجومية، قد تكون هدامة مدمرة لكنها تقود، تبعاً للأوضاع التي تفرضها الوراثة، وللتكوين الفكري، وللبيئة

الاجتماعية ونوع التربية والدراسة، إلى الرغبة في السيطرة على المجتمع الذي يعتبره اليتيم مسؤولاً عن موت أحد الأبوين أو غيابه أو عن عدم وجودهما معاً.

إن كثرة اليتامى بين السياسيين وبخاصة الثوريين منهم ومبدعي التيارات الجديدة الفنية أو الدينية أو السياسية قد تسمح لنا بأن نصوغ استنتاجاً نضعه كما يأتي:

فقد الرعاية الأبوية: يؤدي إلى الإحباط وإلى غياب النموذج (مافوق الأنا). وهكذا يتجه اليتيم إلى البحث عن نموذج تعويضي مبالغ فيه وقد يكون هجومياً يجد فيه الأمن. لينتهي بالبحث عن السلطة التي تمكنه بشكل أو بآخر من السيطرة على فريق من الناس بالفن أو السياسة أو المال أو المشاغل الروحية.

ويبلغ الأمر أوجه حين يداخل الأمر الشعور بالانتقام لدى الابن غير الشرعي خاصة.. إنه عند ذلك يتحول إلى دافع مزدوج قد يدفع إلى المزيد من محاولات التفوق. إنه كالسوط للحصان الجامح. لايهدؤه ولكن يزيد في جنونه! ويصبح الأمر أكثر تعقيداً حين لا يعترف اليتيم بعقدته، ولا يعترف الابن غير الشرعي بعدم شرعيته. العقدة الداخلية في الذات تكبر أحياناً وتشوه الذات. فرويد باللاشعور الذي أدخله على الدراسات الإنسانية الشخصية وسع التاريخ جداً لأنه حول القضايا الصغيرة لتصبح هي القضايا الكبرى والمسيطرة.. ولعلها تصبح كذلك لأنها ما تزال إلى اليوم من قوى الظلام النفسي البعيد..

أما هم... الرجال الكبار اليتامى.

فإن شهرتهم نفسها هي التي تحجب عنا يتمهم المبكر.. نحن ننسى ـ وهم الكبار في أعيننا ـ أن طيف اليتم ماثل في أعماقهم. ولكن هل

ينسون هم أنفسهم ذلك يا ترى؟.. قد لا يعبرون عن ذلك أبداً.. الفلاسفة والكتاب والفنانون منهم لا يعبرون عنه ولكن هل يتجاوزون هذه العقدة في قرارة الذات؟ أنظر إن شئت من شئت ممن أضحوا أقطاب الفكر الإنساني أفلاطون، وأرسطو، وديكارت، وليبنتز، وشوبنهور، وباسكال، وكيركغارد، ورينان، وبيكون، وراسل من الفلاسفة هم أيتام. وسارتر، وبتسالوتزي، وبرناردشو، ورامبو، وريلكه، وديدرو، وجيد، وغوركي، وتورغنييف، وتولستوي، ودوستويفسكي، وراسين، ومارك توين، وموباسان، وهوغو، وموليير، وستاندال، ومالارميه، وديكنز هم بعض الأيتام من الأدباء. وميكل أنجلو، وليناردودافنشي، وروبنز، وبيتهوفن، وباخ، وويبر، وشومان، وفاغنر هم من أيتام الموسيقيين.. من هؤلاء جميعاً ما أعترف إلا القليل بيتمه وبأثر اليتم فيه. ولكن أليست المشكلة حية في أعماقه؟.

أسمع أنا عندي نظرية في هذا..

واستمعت في دهشة لصاحبي وهو يضيف:

ـ اليتم قد يكون عقدة نفسية مهما حاول اليتيم التمويه عنها. ولكنها عقدة مبدعة.. لقد تكون عدوانية هجومية الطابع. كالذي نراه عند بعض الديكتاتوريين الأيتام وقد تكون انكماشية تأملية كالذي يقع لأصحاب الفكر الروحي. وقد تكون مسالمة تسعى لاختراق المجتمع حتى قمته في الأدب والفن. ولكنها في كل الأحوال رفض للضياع الذي يحسه اليتيم وبحث عن التجذر في المجتمع. اليتيم مهما حاولت الاقتراب منه، وإلغاء الحواجز حوله يظل يشعر أنه خارج المجتمع، فهو يحاول الدخول بقوة فيه. يشعر أن ثمة لبنة ناقصة في تكوينه فهو يحاول تلافيها بكل طاقاته الكامنة. لهذا يحاول الخروج من العدم ليصبح شيئاً مذكوراً.

اليتيم بحث دائماً عن الأب أو الأم.. بحث عن الكمال الاجتماعي المتوفر للآخرين! دونك التاريخ أنه يقدم كل النماذج لهذا البحث التعويضي.. فابحث فيه إن شئت..

وتركني صاحبي أبحث.. هل تبحث معي؟..

محمد بن عبد الله ﷺ

محمد بن عبد الله اليتيم. على رأس رعيل اليتامى، الذين انصرفوا إلى الله وإلى المطلق الروحي. يأتي محمد بن عبد الله الرسول الأعظم. ولم يحفظ التاريخ اسماً ليتيم أعظم ولا أكرم ولا أبعد أثراً في المسيرة الإنسانية من محمد بن عبد الله. ولا يحتاج أحد إلى أن أعرفه. فضله، وعظمته، وسمو مكانه، في ميزان التراث الإنساني. فلم يعرف التاريخ رجلاً، كان وما يزال يحرك التاريخ مثله. ولا استمر تأثير أحد تأثيراً متزايد السعة في المكان، بعيد الأثر في الزمان، متنوع الشعوب في الأرض كتأثيره. وليس ثمة فرد، أضحت أعماله، وأقواله، وحركاته، وسكناته، سنة مباركة لمئات الملايين، بعد مئات الملايين، من البشر سواه. وهو بين الأنبياء كافة، النبي التاريخي الوحيد. فنحن نعرف عن يقين وجوده البشري. وتفاصيل سيرته، وأهله، ومغازيه، وجمهرة أصحابه، ورسالته. حاولت الإحاطة بذلك ألوف الكتب بعد الألوف.

على أننا ونحن نحاور اليتم واليتامى، عن أثرهم في توجيه التاريخ، لابد متوقفون عند هذا اليتيم الأكبر، فمتسائلون عن أثر اليتم فيه. كيف انعكس قبل البعثة سمواً وخلقاً عظيماً، وكيف أَهَّلَهُ ذلك لحمل الرسالة العظمى من بعد. يختلف المؤرخون في موعد يتمه بأبيه عبد الله. بعضهم يجعله جنيناً حين مات أبوه. وبعض يجعل عمره سبعة أشهر. وبعض

يجعله ابن ثلاث سنوات. لكنهم لا يختلفون في أنه كان اليتيم المبكر. على أن هذا الفقد، لم يكن ملموساً للطفل الذي قضى السنوات الخمس الأولى، في البادية مع مرضعته. لكنه عرف اليتم الحقيقي الفاجع، بعد ذلك بسنة واحدة وهو عائد مع أمه، من مدن أخواله بني النجار في المدينة. بعد أن زار قبر أبيه هناك. ففي موقع الإبواء، على الطريق إلى مكة، وقعت الواقعة وفقد أمه. كانت في الثلاثين من العمر فقط. وفقدها كما فقد أباه من قبل. كان الجرح بفقدها عميقاً عميقاً.. بعد ٥٦ سنة في عمره الحديبية، حين مر رسول الله بالإبواء قال: إن الله أذن لمحمد بزيارة قبر أمه. وأتى القبر فأصلحه، وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه.

وعلى الرغم من قصر المدة، التي قضاها الطفل محمد بن عبد الله مع أمه في المدينة، فقد بقيت ذكراها حية طرية في خاطره. وحين هاجر إلى يثرب بعد ٤٦ سنة، وتلقاه أهلها بالترحيب والدفوف. نظر إلى أطم بني النجار فعرفه. وغامت الرؤية أمام عينيه. وتذكر الماضي العتيق. وقال: كنت ألاعب أنسيه جارية من الأنصار على هذا الأطم. وكنت مع غلمان من أخوالي نطير طائراً، كان يقع عليه.ونظر إلى الدار، فقال: هنا نزلت بي أمي. وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله. وأحسنت العوم في بئر بني النجار. وشاء قدر الله، أن يزيد في يتم الفتى القرشي. فما كاد يبلغ الثامنة، حتى فجع بوفاة جده عبد المطلب. الذي كفله، واراد أن يعوض له بحنانه عن فقد الأب والأم، ورغم أنه كان في الثمانية من العمر. فقد عرف الفتى بشكل أشد مرارة معنى اليتم المطلق، وهو يشيع جنازة جده. فلا يجد من ملاذ له سوى عمه أبي طالب عبد المناف بن عبد المطلب، رغم وجود أعمام آخرين.

ماذا تراها كانت نظرة الناس إلى ذلك اليتيم، إنا لنعرفها من موقفين. الأول يوم أعطي للمرضعة حليمة السعدية. يذكرون أنه حين عرض عليها، جعلت تقول يتيم ولا مال له، وما عست أمه أن تفعل. ورفضته كغيرها من المرضعات. فلما لم تجد غيره، قالت لزوجها ما ترى؟ ليس بمكة غلام يسترضع إلا هذا الغلام اليتيم. فلو أخذناه، فإني أكره أن نرجع ولم نأخذ شيئاً. فقال الزوج: خذيه عسى الله أن يجعل لنا فيه خيراً. أما الآخر فكان يوم خطب إلى زوجه خديجة. ويزعمون أن أباها وكانت فيه جاهلية، رفض وقال أنا أزوج يتيم أبي طالب؟ لا لعمري. فماذا كانت ردة فعل محمد بن عبد الله تجاه هذه المواقف من اليتيم؟ لقد كفانا القرآن الكريم مؤونة الجواب، حين أوصى ٢٢ مرة باليتامى. أوصى بحفظ أموالهم. فالذين يأكلونها ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً. كما أوصى بإكرام اليتيم، وعدم قهره، وإطعامه، وإيوائه، والإنفاق عليه، وإصلاحه. وقسم له في خمس الغنائم. وأفرد بالذكر يتامى النساء. وأوصى بالقيام لهن بالقسط.

هذه العناية البالغة، ليست إلا الإطار الذي وضع به الإسلام صورة اليتيم في المجتمع الإسلامي، إكراماً للرسول الأعظم. بوصفه رمز اليتيم ونموذجه المجسد. أما الرسول نفسه، فقد كان اليتم بالنسبة إليه، إلغاء لصورتي الأب والأم، اللتين يتشكل على شكلهما غير اليتامى، ودفعاً له لبناء صورة أخرى للإنسان أعلى، ما انفك الرسول الأعظم يلاحقها ويجسدها. فإذا لم يكن في طبع محمد، الميل إلى مخالطة الناس كثيراً. ولا الاجتماع بأقرانه طويلاً. وكان شغوفاً بالوحدة جنوحاً إلى الخلوة، وإذا كان يرفض ما يقنع فيه لذته من لهو وعبث، حتى أعياد قومه، و يرغب عن شهودها، فلأنه صعد شعوره نتيجة لذلك في اتجاه المطلق، وما وراء

الغيب. ولأنه أراد أن يقيم التوازن مع فقد مثله الأعلى الأرضي، بإيجاد مثل أعلى سماوي. وغلب عليه التفكير في خلق السموات والأرض. وفي قدرة الله تعالى. وطالت ساعات خلوته. وحببت إليه. فانصرف إليها، وتحنث، وواظب الانزواء في غار حراء البعيد، في أعلى الجبال يتأمل ويتأمل. لقد كان تعالى يعده لحمل رسالته، وقد فعل.

المسيح عيسى بن مريم

السيد المسيح عيسى بن مريم، هو بدوره يتيم آخر. وقد عبر به اليتم، باب التجربة العنيفة إلى المطلق، وإلى الله. ومع أن الناس يؤرخون ميلاد المسيح، ويحتفلون بيومه في الخامس والعشرين من ديسمبر كل سنة. فإن سنة الميلاد، وشهره ويومه، من المجهولات. معروف أنه ولد في بيت لحم. لكن الدراسات الحديثة، تذكر أن سنة الميلاد تسبق السنة المتفق عليها بسنتين، أو ثلاث سنوات على الأقل. ولم يحدد يوم الخامس والعشرين من ديسمبر موعداً للميلاد، إلا بعد عدة قرون. ولم يكن للمسيح أب على الأرض لأنه من روح الله كان. ولم يكن اسمه يسوع ولا المسيح. فالكلمتان عبريتان. الأولى تعني المخلّص. أما الثانية فتعني الممسوح بالزيت، وعلامة تكريس الأحبار والأنبياء. وفي الأناجيل الأربعة، التي تشكل في الكتاب المقدس العهد الجديد، الموجود بين الأيدي، والتي تروي قصة حياته. كان طفلاً يوم هربت به أمه عبر الصحراء سيناء إلى مصر. وكان طفلاً يوم عادت به إلى هناك. ثم كان فتى في الثانية عشرة، يوم غاب لا يعرف عنه أحد شيئاً. أين ذهب؟ تصمت الأناجيل كلها. ويصمت التاريخ. ويسدل الستار. هذا السؤال ظل نقطة استفهام كبرى في تاريخ السيد المسيح. وظل سرها المكنون إلى اليوم. ويخمنون ويظنون الظنون. يصل به بعضهم إلى كهوف الغور، غور فلسطين ويصل بعضهم الآخر إلى الهند. يريدون استجلاء الغامض الغريب، في هذا الذي عاد إلى

الناس فجأة، في الثلاثين من العمر، يبشر بذكر يهودي جديد، بعقيدة أرادها أن تصحح مسار العقيدة التي يؤمن بها قومه. ولا يفاجئنا هذا. فهو في الأصل من اليهود. وقد طاف ومن حوله موكب متكاثر من تلاميذه، بضع مدن من فلسطين الشمالية والجليل. ظل على ذلك ثلاث سنوات. قضاها في الجدل مع الفقراء، ومعاشرة المساكين والمظلومين، والدعوة الملحة إلى حياة روحية عالية، قوامها المحبة والسلام وصفاء القلب، ونقاؤه وطهارة النفس، وملكوت السموات. وأن يوم الدينونة أقترب. المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المحبة.

وقد أثار المسيح عجب الناس بمآتيه ودعوته. كما أثار حماستهم بهجومه العنيف، على الفريسيين، والكتبة المرائين، وعلى الكهنة الذين تختبئ أهواؤهم ومصالحهم، وراء الأثواب المزركشة، وأبواب المعابد، وفوق قدس الأقداس. وشعر الناس جميعاً، أنهم ليسوا أمام مجرد واعظ ثوري، ولكنهم أمام نبي مخلص. ولقد بلغت حماسة حوارييه له، مبلغ الإيمان بأنه في مرتبة، فوق البشر. وكان ما كان بعد ذلك، يوم وصل القدس، ودخل الهيكل، وطرد بائعي الطيور، والصيارف، من القاعة الخارجية. فائتمر الكهنة والصيارف به. وشكوه إلى الحاكم الروماني بيلاطوس النبطي. الذي أمر بصلبه بين لصين. «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم». كذلك يقول القرآن الكريم على أن دعوة السيد المسيح في الحياة الدنيا، تنتهي عند هذا الحد. فالذين نظموا العقيدة المسيحية، وأقاموا أركانها من صور الخطيئة الأولى والفداء الإلهي، تكفيراً عنها إلى الثالوث الأقدس، وتجادلوا في طبيعتي المسيح اللاهوتية والناسوتية وامتزاجهما، وأقاموا الكنيسة وتنظيماتها الهرمية، إنما هم الحواريون من بعده، وتلاميذه وتلاميذ التلاميذ من بعد. ولسنا نقف من هذا كله عند شيء. ولكن يهمنا أن نطرح السؤال الذي نسأل: ما دور اليتم في هذه

المسيرة كلها؟ بلى إن المبادئ التي أعلنها السيد المسيح قد بقيت لكن لو عاد اليوم إلى الحياة، لأنكر معظم ما يقوم به المسيحيون باسمه. على أن المسيحيين الأوائل، كانوا على استعداد لاختراق النيران، في سبيل ما العقيدة المسيحية، اتهمهم نيرون بإحراق روما. وحكمت عليهم المحاكم الرومانية بالإلقاء في الملاعب. والملاعب العامة للوحوش المفترسة. وصلبوا في كل مكان. عصر الشهداء منهم امتد حوالي قرنين. وعرفتهم معظم البقاع المطلة على البحر المتوسط. حيث انتشرت الديانة الجديدة. فما السر في هذا المسيح؟ يبدو أننا لابد عائدون إلى فترة الغياب في حياة المسيح. فباحثون فيها عن السر فمقدرون أن السر يكمن في عزلة اليتيم. و ليست هذه بعزلة طوعية، أو مفروضة. وسواء أكانت هذه أم تلك، فقد كانت عزلة. وكان في العزلة تأمل وتفكر. وكان من وراء ذلك قرار بالدعوة. إن الله لا يودع سره، إلا في من يستحقونه ومن يقومون به. والمسيح في مجاهدته التأملية البعيدة عن الاتصال مع الناس، كان يبني ذاته. يكمل نقصه الاجتماعي بأبيه. ولعله لهذا كثر استخدام كلمة الأب كثيراً مكان الرب في الأناجيل. ولعل المسيح نفسه استخدمها كذلك. كان ثمة تعادل توازني يبنى بهذا التأمل. وكان ثم رسالة تهيأ، ويستعد لها هذا الرسول. وكان ثمة عودة إلى المجتمع بقوة وإشراف من عل عليه. وبعد أن خرج اليتيم المعزول من بابه الضيق، كان لابد له أن يعود منتصراً من الباب الضيق نفسه. اجهدوا للدخول من الباب الضيق. هكذا قال. وهكذا كان. وفي الكتاب المبين قال ﴿**إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً، وبراً بوالدتي، ولم يجعلني جباراً شقياً. والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً**﴾.

موسى الكليم اليتيم

قارئ القرآن الكريم من المسلمين، قد يكون أكثر معرفة بموسى الكليم من غيره. وقد تكون شخصيته ماثلة عنده، قريبة من ذاكرته ونفسه، بحكم ترددها الكثير في الآيات والسور. أن اسم موسى يتكرر في آيات الله البينات **١٣٦** مرة. وفيها تفصيل حياته من مولده إلى الرضاعة، إلى جزع أمه عليه، إلى زواجه في مدين، وبعثه، ومنافسة السحرة له وخروجه بالشعب العبراني من مصر، وقصة أخيه هارون معه حتى لتحسبه من شدة الحضور، إنما كان بالأمس لم يغبنه الزمان. لكن الذين يعانون التاريخ فقط، يعرفون أنه قد انقضى على وجوده **٣٣٠٠** سنة على الأقل. وقد يعرفون أكثر من هذا، أن ثمة جدلاً لدى بعض الباحثين المتشككين في الغرب حتى حول هذا الوجود. الذي ينكره بعضهم، ويعتبرون صاحبه شخصية أسطورية، مثل أوديب البطل الأسطوري اليوناني، أو جلجامش بطل الملحمة البابلية. وليس بذاك بل هم يعرفون. وبعضهم أقل مغالاة وشروداً مع الفرضيات. يجادلون في قومه. ويعتبرون أنه مصري الأصل وليس بعبراني. ومن حججهم التي يرونها دامغة اسمه. فإن كلمة موسى مصرية، وتعني الوليد والابن. وهكذا فإن رعمسيس هي أب رع وتحتموس هي ابن تحوت. ولسنا في معرض تحليل الاسم، ولكننا في معرض تحليل اليتم. إن ذكر عمران والد

موسى، يغيب تماماً بشكل مبكر. لأنه هجر أمه. ثم ما نلبث أن نلاحظ غياب ذكر أمه أيضاً، بعد قصة ولادته ورضاعه. فقد أوحى إليها، أن تحل مشكلة إنقاذ الطفل، بوضعه في التابوت، وإلقائه في اليم. خيفة أن يقتل مع الأطفال الآخرين. وألقته في اليم فالتقطه آل فرعون ﴿**وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**﴾. وقد انتهى هذا اليتم الأول أو كاد. حين قدمت الأم وقُدِمت إلى آل فرعون، بوصفها المرضع. وعاد الطفل إلى أمه. ولكن على أنها المرضع وليست الأم. وينتهي هاهنا دورها، ليبدأ من بعدها يتم آخر، كان قد بدأ ينداح في نفس موسى مبكراً. فقد نشأ الطفل بين بيتين، بيت يتبناه، ولكنه يعلمه دوماً أنه ليس ببيته وأنه ربيب فيه، وإن يكن البيت العالي، (برعاه أو فرعون). إنهم لم يخفوا عليه أنه ابن اليم التقط منه. وبين بيت آخر هو بيته الحقيقي. ولكن هذا البيت لا يجرؤ أن يعلن بنوته له وبين البيتين كان يتمه الآخر. اليتم الذي تتناقض فيه، وتصطدم معرفته لأهله، مع إنكاره للأهل الجبارين، الذين تبنوه. والذين يتولونه بالرعاية، ويمنحونه القوة بين الناس. كل شيء في داخله يمزق توازنه الداخلي والنفسي ويحيره. فلما بلغ موسى اشده، واستوى، كان يتم ثالث ينتظره. وقد ملأ نفسه، وزاد في عمق الهوة، التي تفصل بينه وبين قوم فرعون، هو غربته في المجتمع المصري الذي يعيش فيه، هو وقومه. أخذ يدرك أنه مضطهد معزول. وإنهم مضطهدون معزولون، أخذ يدرك، أنه رغم مكانه كربيب لآل فرعون، يتيم دون سند، إلا من قوته الذاتية. المجتمع الذي هو بالنسبة إليه الأب والأم والظهر الذي يحمي، كان واقفاً في الطرف الآخر ضده وضد قومه. وانصرف إلى التفكير في المطلق، يستجيره، ويستنجده. إن الله في هذا، كان يعد موسى لرسالته، وللقاء

مع القبس الإلهي في الوادي المقدس طوى. وفيما كان تفكيره في الله الواحد الأحد، وفي قوته ينمو في خاطره، يتبلور، يتضح، كان التفكير في المطلق يقيم التوازن في ذاته.. كان الاضطهاد الاجتماعي له ولقومه، يدفعه إلى أن يبحث عن مخرج من هذا الظلم، ولو بقوة الجسد واتفق أن ﴿ **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه**﴾ وأدرك موسى بسرعة، أن هذا عمل خاطئ ﴿ **إنه من عمل الشيطان**﴾ رواسب الحقد والنقمة، هي التي اجتمعت في يده الضاربة. وعرف أنه أخطأ الطريق ﴿**قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي**﴾. كاشفاً بذلك النزاع بين رغبته في التميز المادي والجسدي، ورغبته في التميز الروحي الذي ينشد. ولماذا التميز؟ لشعوره بأنه أقل وزناً في الناحتين الفردية والاجتماعية من الآخرين، في المجتمع الذي يعيش فيه. وكما كان غار حراء للرسول الأعظم، بمثابة نقاء روحي وتصعيد في صفاء الذات، وكما كان غياب السيد المسيح سنوات طويلة، لا يدري عنه أحد شيئاً، كذلك أتيحت الفرصة نفسها لموسى الكليم، لا في مصر، ولكن في جبال مدين والقصة معروفة إذ ﴿ **وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين. فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين**﴾ وتوجه لقاء مدين. ولما وردها، تزوج. وكان صداق زوجه، أن يعمل عند أبيها ثماني حجج. في هذه السنوات الثماني، وفي جبال مدين ووديانها، اكتملت لموسى رؤيته الدينية. ونضج تأمله الفكري. وبلغ بجهاد الروح، المرحلة التي يستطيع معها تأدية الرسالة. وعند ذلك آنس موسى القبس الهادي و﴿ **نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة**

المباركة من الشجرة﴾ وعاد موسى برسالة التوحيد. أهي وحدانية اليتم، التي أدت بموسى إلى اكتشاف وحدانية الله؟ لست أدري. ولكن ألست معي في أن اليتم فعل فعله في سيرة الكليم؟ في العزلة وفي التأمل الروحي وفي التسامي الذاتي حتى سدرة المنتهى؟

كونفوشيوس

الذين عرفوا بعض الأفكار عن الصين، يعرفون بلا شك كونغ فوتسو، الذي يدعوه الغربيون كونفوشيوس. وتعني الكلمة «الأستاذ كو». إنه أحد رموز الصين الكبرى. فما أن تعرف سطرين عن الصين حتى يمر اسم كونفوشيوس في السطر الثالث، إن باستطاعتك أن تصف أسلوب حياة الشعب الصيني كله، خلال السنوات الألفين الماضيات، في كلمة واحدة «كونفوشيوس» ولن تخطئ. فلن تعثر في تاريخ الصين على فرد آخر، أثّر هذا التأثير الطويل العارم في حياتها، معلماً وناقلاً ومفسراً، ومبدعاً للتراث والأدب وسيد فكر وسلوك، صائغاً، بين هذا وذاك، العقل والخلق الصينيين، في قالبه الخاص الفريد.

الثورة الشيوعية بعد سنة ١٩٥٠م، هي التي أزاحته عن الواجهة. هذا الرجل بدوره كان يتيماً. فقد أباه، ولم يكن قد بلغ الواحدة من العمر، ويذكرون أنه في الأصل من أسرة نبيلة ولكنها فقيرة، أخنى عليها الزمن. وأن أباه الضابط في دولة «لو» ودّعَ الحياة. ولم يكن «سو» وهو اسمه، قد تجاوز الواحدة. كان ذلك قبل الميلاد بـ٥٥٠ سنة. أمه هي التي ربّته. حتى إذا يفع، عمل فترة في رعي الأغنام، لدى بعض الأمراء. وكان، كما قال هو نفسه: لا شأن له ولا مكانة. يعيش في ظل ظروف ذليلة، وعمل في حرف أغلبها حقير وضيع. لهذا كان يقضي أوقاته في دراسة الآداب القديمة، وتراث الفلسفة، وفي الموسيقى، يثقف نفسه. ولفت

اجتهاده وإخلاصه وأمانته في العمل، نظر الأمير. فعهد إليه بوظيفة أمين مخازن الغلال، وهذا ما مكّنَهُ من أن يتزوج، وهو في العشرين من العمر. غير أنه ترك هذا العمل بعد سنتين لينشئ مدرسة يتلقى فيها الشبان، وذوو المواهب الخاصة، أصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية، وهو الموضوع الذي كان يشغل كونفوشيوس، في عصر كان الانحلال الخلقي، والفقر المادي، والانحطاط الديني، بالإضافة إلى الفوضى السياسية، هي أبرز ما يميزه.

وصار كونفوشيوس مستشاراً سياسياً، لبعض الأمراء الولاة. يستطلعون رأيه فيما يعرض لهم من مشاكل، وما أكثرها. فالأمراء في حروب مستمرة بين بعضهم. وكانت الضرائب الباهظة، هي وسيلتهم للحياة الباذخة في القصور. وفيما كان المزارعون يهيمون على وجوههم هاربين، كان زبانية الجباة والتجار يجمعون الثروات. واختل التوازن الاقتصادي والاجتماعي. وتعددت الآراء في الحلول. وعرف كونفوشيوس خلال ذلك، سلسلة طويلة من التجارب المريرة. وفي الخمسين من العمر، صار كونفوشيوس رئيساً لوزارة دولة «لو» فأعدم الوزراء المشاغبين، وأدّب اللصوص، وراقب التجار المراقبة الصارمة، ليمنع الغش والاحتكار.

المصادر الصينية تزين سيرة الرجل بأنواع الأساطير. وتنسب إليه من الروايات والأقاصيص الكثير، وكلها من نسيج خيال مريديه والمعجبين، لدرجة التقديس. أما أحفاد من آذتهم أفكاره، فهم له منكرون. وهكذا يذكرون أن نجاحه في إدارة دولة «لو» كان ساحقاً، ولدرجة خشيت معها دولة «تشي» المجاورة، استفحال نفوذه، فأرسلت إلى دولته بفرقة من الراقصات. افتتن بها الناس، وفسد الأمر، ودس حُسَّاده عليه لدى الأمير فأقاله. وأصيب بالقنوط الشديد، فاستقال ليجمع حوله مريديه،

ويطوف بهم في أرجاء الصين الإقطاعية يؤلف ويعلم الشباب وينصح الولاة، مناديا بإحياء التراث،والسير على قواعده، مؤسساً أول مدرسة حرة في التاريخ الصيني، يشبه فيها كل الشبه بسقراط الحكيم. ونجح في ذلك حتى سماه معاصروه «معلِّم البشر»، ونظروا إليه على أنه أعظم مرشد للجنس الإنساني. اعتبروا كتابه « المنتخبات» أو « المحاورات الفلسفية» كتاباً مقدساً، كما اعتبروا أنه - حسب الاصطلاح الصيني - ممن فوضت إليهم السماء هداية الناس. لكنه قبل أن يصل إلى هذه المرتبة، تعرض لما لا ينتهي من المشاق والأخطار، حتى انتهى به المطاف في بلده الأصلي بعد ١٣ سنة.

بعد ٣ سنوات من ذلك، في سنة ٤٧٩ قبل الميلاد توفي. ولا يزال قبره محجة المريدين منذ ٢٥٠٠ سنة إلى اليوم. كما أن له معابد فخمة في كل المدن والقرى في الصين.

ويأتي هاهنا السؤال: ألم يكن لليتم دوره في تكوين هذا الرجل؟

إنك لتستطيع دون كبير عناء، أن، تكتشف الصلة بين يتمه وفلسفته. فقد كان يلح على حفظ التقاليد، والتمسك بالأخلاق ومع أنه غامض الفكر الديني، ككل الصينيين، إلا أنه كان واضح النظرة في أمور الحياة الواقعية. يطالب بالطاعة للوالد والحاكم والأخ الأكبر والأصدقاء، لأنها الفضائل الخالدة. كما يلح على التعامل بإحسان، وعلى التعلم المستمر، وعلى العدل، ومحاولة الكمال، واتباع الأصوب دوماً. ومن أقواله: «اثنان لا يغيران رأيهما: أعقل الناس وأسخف الناس. أعقل الناس لثقته بعقله، وأسخفهم لضعف عقله». وغاية الحياة لديه، أن يصبح المرء ماجداً، أي نبيل التصرف في الحياة.

اليتيم في كونفوشيوس هو الذي يتكلم. شعوره باللبنة الناقصة في السلسلة البيولوجية، والتاريخية، التي تربطه بالمجتمع هي التي تحفزه،

تدفعه، تملأه، وتضع على لسانه ضرورة الارتباط المتزايد أكثر فأكثر، بالمجتمع والاندماج فيه.

منذ كان راعياً وعاملاً في المهن الوضيعة كانت العقدة تتأصل في داخله. وقد انعكست تعليماً، ورغبة في حسن السلوك، وتمجيداً للتقاليد. وقفز اليتيم كونفوشيوس من كائن لا شأن له، إلى أن أضحى رمز أمة، ومن المؤسف أنه مات وهو يعتقد كل الاعتقاد أنه قد أخفق وفشل.

بـــوذا

صورة اليتيم عندي وعندك، تقترن في العادة بالمتربة والمسكنة. لكن هذا اليتيم «بوذا» مختلف، مختلف جداً. إنه يتيم ذهبي أرِستقراطي. وبوذا ليس باسمه الأصلي، إنه لقبه. وتعني الكلمة «الملهم المستنير». اسمه الأصلي «سد هارتا». أبوه: واتماراجا، كان حاكم مملكة «ساكيسة»، من طبقة المحاربين. ولقد ولد سنة **٥٦٣** في الغالب قبل الميلاد. لكنه فقد أمه بعد ولادته بقليل. ويقال فقدها وعمره ٧سنوات. وعلى أي حال فهو يتيم. وقد نشأ في حضانة أختها، مع المربين والمربيات بعد ذلك. وقد أحيطت سيرة بوذا خلال القرون، بهالات بعد هالات من الأساطير والقصص. حتى أخذ بوذا أحجاماً، أكبر بكثير من الحجم الإنساني. وحتى ضاعت الملامح الحقيقية لمؤسس الديانة البوذية. فلست تعرف أين ينتهي الواقع فيها، وأين يبدأ الوهم والخيال. واغتلى ارتياب الناس فيه، حتى تساءلوا: هل عاش فعلاً أم تراه كان شخصية أسطورية ليس لها وجود؟ وعلى أي حال، فسيرته تذكر، أن أباه حرص على تجنيبه ما يعكر سعادته. وفر له كل ما يشتهيه، وأمر من في القصر بإزالة كل مشاهد الشقاء الإنساني، وحظر على الحاشية أن تقع عين ابنه على المناظر المؤذية، إذا خرج من القصر، وزوجه وهو في السادسة عشر من العمر، بعد أن تفوق في مسابقة بالأقواس أخترق بها، على ما يقال، سهمه سبع شجرات في نسق واحد دفعة واحدة. على أن هذه الحياة

الهانئة تكدرت فجأة أربع مرات متتالية، خرج فيها بعربته إلى المدينة، فشهد ما لم يشهد من قبل: شهد عجوزاً مسكينة ومريضاً معدماً، وجثة مشوهة، وراهباً يستعطي بقبعة المتسولين، حين عاد في المرة الرابعة، وكان في التاسعة والعشرين من العمر، وجد زوجته قد وضعت ابناً له.

ولكنه كان قد اتخذ قراره النهائي بالانصراف إلى الرهبنة، أستأذن زوجته سراً ودعا بحصانه وحوذيه، وغادر القصر. وحين أوغل في الغابة، نزع عنه ثيابه الحريرية، وارتدى ثوباً من نسيج القنب، وأمر حوذيه بالعودة. ولم يستطع الحوذي مفارقة سيده فمات.

أما سد هارتا فابتدأ منذ ذلك اليوم جهاده الروحي الأكبر، ليصبح ما سوف يعرف ببوذا. الذين يحللون شخصية هذا اليتيم المترف، يقولون إنه كان يعوض بهذه العملية الانقلابية فقد حنان الأم. ويريد أن يحتضن الحياة كلها، والكون بما فيه مادام لم يحظ بحضن الأم. ويريد أن يسفح حبه لكل شيء، مادام لم يجد الكائن الحبيب الذي يقدمه له، ويريد أن يصعد في ميوله الوجودية نحو الغيب، مادام أفتقد الوجود الأسمى، وجود الأم على الأرض.

لعبة اليتيم العميقة، هي التي لعبت دورها بعد أن أكنها في ذاته أكثر من ربع قرن. وهكذا قضى بوذا سبع سنوات بين الغاب وبين معتكفات النساك، في انعزال روحي تام. وأمتنع عن القعود فجلوسه القرفصاء دوما. أما سريره فمن الأشواك، وأما قوته اليومي، فما سوى حبات من الرز على فترات، وهزل، ثم هزل، وادلهمت نفسه، دون أن يصل بتعذيب الذات والصيام والتقشف إلى شيء. وذات يوم، بينما كان في فيء شجرة تين يتأمل ويتأمل، اشرق الحق في ذاته، أدرك أن تعذيب الذات كعيشه الرغد سواء بسواء كلاهما مهين بائس لاينفع. وإن الطريق الوسطى بينهما هي التي تكشف البصر والفكر. وكشف مبدأ

التناسخ، والدورة الأبدية، وأدرك أن شقاء الحياة أزلي، ومبعثه رغبات النفس. وأن الإنسان قادر، على أن يكون سيد رغباته لا عبداً لها بمجاهدتها، والوقوف لها بقوة الثقافة الروحية الداخلية، ومحبة الآخرين.

يومذاك، فيما يزعمون، راحت الأفاعي والعصافير والجنيات وسائر الكائنات، تسبح لبوذا بعطور سماوية وأزهار وهدايا، فيما كانت جوقات سماوية ترتل الموسيقى الإلهية، حتى امتلأت العوالم العشرة آلاف، عطراً وزهراً ونجوى. ومنذ ذلك اليوم لم يعد سد هارثا. صار بوذا الملهم المستنير. وتراءى له أن يبشر بما رأى. ولكن دون ذلك أهوال، فالشيطان شن عليه هجوماً بالنار، والظلمات، وطوفان الصخور، والرمال،والرماد، وانتصر بوذا. والناس كانت تعميهم شهواتهم فلا يسعون إلا لهلاكهم. ولكن بوذا انتصر على تردده، وأطلق عجلة المبدأ. هذه العجلة التي أضحت رمز الإيمان البوذي. فهي موجودة في علم الهند اليوم. وظل بوذا يدعو ٤٠ سنة لأفكاره، حتى إذا حضره الموت، وهو حول الثمانين قال لمريديه: والآن أخوتي الرهبان المتسولين، أستأذنكم في عطلة لي، جميع عناصر الكائن انتقالية فاعملوا لخلاصكم إن الخلاص إنما يكون بـ « النارفانا» إنها الغاية النهائية. وما «النارفانا»؟ إنها اتحاد الروح الفردية، بالروح الخالدة للكون. وغياب متعدد في الواحد. وانطفاء الشعلة عند انتهاء مادة الاحتراق.

ترى هل كان بوذا يوحد بين «النارفانا» وحضن أمه؟ من يدري؟

أخناتون

أنت وأنا والكثيرون منا نسمع بالفراعنة. والقرآن الكريم الذي شهّر بطغيان فرعون، جعل اسمه متداولاً بين الناس. والزائر لمصر لابد مشاهد آثار الفراعنة، من الأهرام إلى الأوابد الباقية والتماثيل والقبور وأدوات الزرع والصيد، فعارف عنهم أنهم عبدوا شتى التصورات، وأهوا ما يؤلهون من الحيوان والإنسان. ولكن قد لا يعرف إلا المتخصصون أن واحداً من هؤلاء الفراعنة، واحداً فقط حاول إلغاء هذه الأرباب جميعها، ومحو صورها وأسمائها، فلم يبق منها للناس إلا عبادة إله واحد، تمنى هذا الفرعون أن يحملهم على عبادته حملاً. هذا الفرعون الذي كان ثورة توحيد قبل ٣٤ قرناً، هو أمنحوتب الرابع أو كما سمى نفسه أخناتون. وكان هذا الفرعون يتيماً أيضاً. فقد أباه وله ١٣ سنة. الذين درسو مسيرة هذا الفرعون، لهم مذاهبهم في تفسير هذه الثورة. لكننا نتساءل هل ليتمه وتوحده وشعوره بالتفرد المعزول، تأثير في تفكيره بالوحدة الإلهية؟ قد لا يستطيع أحد الجزم بشيء في هذا السبيل. ولكن ما ضر لو ألقينا السؤال. المؤرخون يعتبرون أخناتون أول من نادى بوحدانية الله. كان يرى أنه واحد لا شريك له، وإن كان يمثله بقرص الشمس في المعابد. ويبدو أنه لم يكن فرعوناً فقط، ولكنه كان شاعراً أيضاً وفيلسوفاً دينياً. كتب بنفسه الكثير من أناشيد الدين الجديد، ومن التسابيح المنقوشة على الآثار إلى اليوم. كان مقتنعاً برأيه الوحداني، لدرجة أنه

أراد تسخير سلطته الفرعونية لفرض هذا الرأي فرضاً، على الناس، وسقياهم التوحيد مرغمين. كان يعرف أولاً، يعرف أنه سوف يلقى المعارضة من أعضاء الأسرة المالكة. فلم يأبه ويعرف أنه مصطدم دون شك بكبار الكهنة، الذين يختبئون وراء أنصاب الأرباب الزائفة، ويعيشون على المتاجرة بترهاتها، فوقف لهم. ويعرف أنه يدمر بهذا الرأي الجديد، عدة آلاف من سنوات الماضي الوثني للناس، ومن المعابد والفلسفات والأدب، وأنه يلغي تقاليد في البنية الاجتماعية، والمصالح، لا أرسخ، ولا أقوى جذوراً، فمضى في ثورته حتى النهاية. كان احتفال أخناتون بالجلوس على العرش، في بلدة أرمنت، أقدم عواصم إقليم طيبة في مصر. وتمهيداً لنشر مذهبه، بنى لربه الواحد معبداً في الكرنك، سماه معبد «رع - حور - أختي». أي معبد راع رب المشرق والمغرب. وبنى لنفسه قصراً سماه « مباهج الأفق». وفي العام السادس لحكمه، وكان قد بلغ مبلغ الشباب حوالي العشرين، اشتد اللجاج بينه وبين طغمة الكهان، واستحكمت الأزمة، فأصدر أوامره بتحطيم أصنامهم،ومحا اسم معبودهم امون عن كل أثر. وما أكثر الآثار الأولى التي كانت باسم آمون، ووصف الإله الواحد آتون، بأنه المعت. أي الحق. وهكذا قامت الحرب علناً بينه وبين الكهنة. الذين استقطبوا الأنصار ضده، وأغووا حتى زوجته بمعارضته، فلم يجد مخرجاً، سوى أن ينتقل ببلاطه وأنصاره إلى عاصمة جديدة بناها في قلب الوادي، على الضفة الشرقية، تعرف اليوم باسم تل العمارنة. وأعلن أن الرب اختار له هذا المكان و اصطفاه هو لنشر دعوته منه. وأعلن على الملأ زهده، وبعده عن عرض الدنيا وزينتها، وأنه لا يملك شيئاً، ولا يريد أن يملك شيئاً، وإنما السلطان لربه مالك كل شيء.

لم تكن هجرة أخناتون إلى مدينته الجديدة تحفزاً، واستعداداً للدعوة كهجرة الرسول الأعظم مثلاً، لكنه هاجر هرباً بدينه وربه، لأنه وضع حول منطقة المدينة أربعة عشر لوحاً، نقشها، وأقسم في بعضها أن لا يتوسع في حدود هذه المدينة، كأنما كان يريد أن يقيم الهدنة بينه وبين خصومه، الحاقدين المتحفزين. وفي هذه المدينة غير لقبه الملكي، من امنحوتب الرابع أي الذي يرضي آمون، إلى أخناتون وتعني المفيد لأتون. وتلقب بالراضي بالحقيقة.وقد نعذر الرجل، فقد كان سابقاً لعصره الوثني. وقد رأى بعينيه، رغم سلطاته الفرعونية، ورغم شجاعته في إعلان رأيه، غربته في عصره، فآثر المسالمة لعجزه عن الحرب. ولعله بالعكس، كان يؤمن بالسلم والمحبة عن يقين. فلم يحمل السلاح ضد خصومه. وفي كل الأحوال، فقد اختار لنفسه ولأنصاره المكان الذي يكونون فيه أحراراً، فيما يعبدون وما يتصرفون. والواقع أنه أعلن للناس كامل حرياتهم في مدينته. فانطلقت أيديهم تصور مظاهر الحياة البسيطة، وتكتب باللغة السهلة، وتتعامل التعامل الإنساني العادي، وتنشد للتوحيد الإلهي. فعلى معابد الرجل صورة، وهو في عربته مع زوجه يتنزهان، أو يداعبان أطفالهما، أو يبكيان عند نعش الصغير الذي فقداه. وعلى معابده نقرأ من التسابيح التي كتبها بنفسه، قال أنت الحي آتون. بادئ الحياة. مهما بعدت فإنك في وجوه الناس. مع أن تحركاتك لا ترى. وما أروع تعدد صنائعك. إنها خفية على أعين الناس. أنت الذي تنمي النطفة في الأرحام، وتجعل منها بشراً. إنك إله واحد لا مثيل لك ولا شبيه. أنت الذي خلقت الأرض وحدك، وبقلبك، وخلقت البشر والماشية والقطعان وكل شيء على الأرض. وما يسير على قدميه، وما يحلق طائر بالأجنحة سواء في أرض هور أي الشام أو كوش أي أرض مصر.

على الرغم أن هذا النشيد وأمثاله، لم يكن لها أن تعيش مع المد الوثني العرم. لقد انتهت جميعاً بموت أخناتون، الذي جاء وشيكاً وهو حول الثلاثين من العمر. وانتهت معه هذه الإشراقة التوحيدية المبكرة، في تاريخ الإنسان والتي إنما قادها أيضاً أحد الأيتام.

يتم هرقل

أسطورة أخرى من أساطير اليتامى الخرافيين، هي أسطورة هرقل. والكلمة دارجة على الألسن. وقد تستعمل بالعربية للدلالة على القوة الجسدية والتسلط. ولكن من هو هرقل؟

الذين وضعوا أسطورته الخرافية، لم يقصدوا أن يبرزوا يتمه، ولكن بطولة الجسد فيه. على أنهم وجدوا من بين ما يمجدونه فيه في ضفونته، أن يجعلوه يتيماً أيضاً. ولو أنه في زعمهم ابن رب الأرباب. يجب أن ينشأ في عزلة اليتم. ليزداد صلابة وعنفاً، ولا يستقيم أن يكون يتم هرقل يتم العزلة والتأمل. لهذا أرادوه أن يكون جسداً من الحديد، أو أشد صلابة، ولهذا صاغوه على النموذج الذي شاؤوه له، طفلاً يقتل ثعبانين وهو في المهد. ويزعم الزاعمون أن الطفل هرقل كان ابناً لحسناء من البشر.. تركه أبوه الإله زيوس لمصيره، وعملت به زوجته هيرا بعد أن ولد، فأقسمت لتتخلصن من هذا الطفل البشري. وبدأت بذلك متاعب هرقل المعجزة.

نشأ الطفل وقد ذابت الصخور في عضلاته، وتنزلت في أذرعه وعلى المنكبين. ولم يكن لليتيم مورد، فسعت هيرا حتى صار هرقل خادماً لدى قريبه النذل أمير أرغوس. وهناك امتحن الامتحان الأول، بفتاتين إحداهما هي الفضيلة في قدسها، والثانية غاوية فسوق في كل جارحة منها شيطان. فتماسك هرقل، وما غوى وتزوج الفاضلة. فغضبت هيرا،

وسحرته ذات ليلة، فإذا به يصاب بلوثة جنون. وإذا به يتصور جميع من حوله أعداء. فأنقض عليهم قتلاً وسحقاً وتمزيقاً. وحين صحا، وجد أنه قتل فيمن قتل زوجه الفاضلة. وزلزلته المصيبة، فكره الدنيا والناس وكره نفسه. وقرر العزلة وانحاز في معبد صغير بإحدى غابات البلوط، وما كاد يمكث فيه أياماً حتى تحول شكله إلى التوحش. فاسترسل شعره، واحمرت عيناه، واستدارت عضلاته، وحال صوته زئيراً، وانتزع من بعض الشجر جذعاً ذا عقد فجعله عصاه، وزين رأسه بإكليل من ورق الحور، وأنطلق في الغابة. وكادت له هيرا مرة ثالثة، فاستدعاه الملك أرغوس ليكلفه القيام باثني عشر عملاً من الأعمال المعجزات. كان أولها قتل أسد ميميا الجبار، ذي اللبدة السمراء والجلد الصفيق، الذي لا يخدشه سهم ولا قناة. وصارع هرقل الأسد طويلاً. وفيما كان أمام شدقيه، يريد أن يشدخه بالسيف، تفقد السيف فلم يجده. لقد سرقته منه هيرا فما كان منه إلا أن أمسك بالفكين، فمزقهما بيديه ثم أطبق على عنق الأسد، حتى انهار مخنوقاً، فجره وراءه، معفر اللبدة بالتراب، بين هزيج الفلاحين ومزامير الرعاة. ثم سلخ جلده، فجعل منه إزاراً دائماً له. وعاد الملك أرغوس، فأمره بقتل الأفعوان هيدرا ذي الرؤوس السبعة، الساكن في المستنقعات الآسنة. وذهب هرقل، فوجده كتلة هائلة متشعبة، وسط الحمأ المسنون. الشرر في أحداقه، والسم يقطر من أنيابه، والفحيح الذي يصم الأذان تنطلق به ألسنته الممتدة عدة أذرع. وهجم هرقل عليه بالسيف. وما كاد يقطع رأساً من رؤوسه، حتى نبت له بدلاً منه سبعة رؤوس. فرمى بالسيف، وأهوى بالضربات الساحقة على الوحش، حتى وهنت قوى الطرفين، وكاد هرقل أن يتمكن منه، لولا سرطان ضخم أرسلته هيرا فعض قدمه، ثم انسحق تحته. وأخيراً أنتزع هرقل شجرة ضخمة، فأحماها في النار، فكان إذا قطع رأساً من رؤوس الأفعوان،

أسرع فكوى مكانه بالنار كياً. بعد ساعات، كان الجو قد فسد من أنفاس الحيوان الأفعوان الخانقة. وكان المستنقع قد طفح بدمه المسموم، وكان الأفعوان أشلاء ممزقة.

واستمرت مغامرات هرقل على هذا النحو، واحدة بعد أخرى. فتارة يرسله الملك المغيظ لقتال ثور وحشي هائج، وتارة لتنظيف حظائر الخنازير البرية، وثالثة لحرب الطيور ذوات المخالب النحاسية، ورابعة لتطويع الأفراس الفاتكة. إلى أن كلفه في النهاية أن يأتيه بتفاحات هيبيريا الفضية، التي تشع كأنها الكوكب الدري، والتي يحرسها تنين هائل، له ٧٠ ألف رأس في كل رأس ٧٠ ألف عين، و٧٠ ألف ناب للسم. وله فحيح أين منه زمزمة الجان، أو مكاء الشياطين؟ ولقد عاد هرقل بها، بعد أن أضطر في سبيلها إلى حرب المارد الجبار «إينيوس» ابن الأرض وقتله، وإلى أن يحمل قبة الفلك الدوار مدة طويلة عن حاملها الشيخ أطلس.

ويعرف أبو هرقل في النهاية بهذا كله. فيستدعي ابنه إليه. ولكن حقد هيرا يبلغ عند ذلك غايته، فتبعث إليه بقميص مسموم، وما يكاد يضعه على جسده، حتى يتهرأ لحمه، وتتمزق عروقه، ويتساقط مزقاً. وتنتهي بذلك أسطورة هرقل. وكل بطولة يقوم بها الإنسان. إنها خرافة أخرى. هذه الخرافة. وإنما جاء بها أنها أسطورة يتيم أيضاً، وقد حاول بالجسد، وقوة الجسد، أن يصمد للقوة الإلهية. ولكنه انهار في النهاية.. ولقد قال تعالى ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً**﴾ وقال ﴿ **إن ا لله قوي عزيز**﴾.

صدق الله العظيم

سارغون وحمورابي من الملوك الأيتام

لعل هذين الاسمين، يطرقان سمعك لأول مرة. أو لعلك سمعت ذات مرة بأحدهما في بعض المناسبات، ومع ذلك فهما من صميم الأرض، التي أنت منها وأنا والآخرون.

ولو عدت إلى ما قبل أربعة آلاف سنة ونيف في التاريخ، لوجدت أنهما أبرز الأسماء، التي تقرع الأسماع كالطبول. كانا في عصريهما زعماء الدنيا الكبار، أو بعض زعمائها الكبار. والاثنان كانا بدورهما يتيمين. سارغون ملك جنوب العراق قبل حوالي ٤٨ قرناً، هو الذي أسس ما يعرفه التاريخ باسم المملكة الأكادية. هذا الملك ترك، بين ما ترك، نقشاً بالكتابة المسمارية قال فيه: « أنا سارغون الملك القوي ملك آكاد. كانت أمي من عذارى الهيكل، لم أعرف أبي في حين لبث عمي في الجبل وفي مدينة أزوت تيراني على ضفاف الفرات. حبلت أمي بي وولدتني سراً، ووضعتني في سلة من الأثل، وسدت فتحاتها بجلبان، وتركتني بالتيار فلم أغرق. وحملني التيار إلى غراف الماء المدعو آكي. وانتشلني آكي الطيب القلب من المياه، ورباني آكي كأنني ابنه، وصرت بستاني آكي غراف الماء. وحين كنت بستانيا، مال قلب الرب عشتار إلي، فأصبحت ملكاً وحكمت طوال ٤٥ سنة».

إذن فسارغون يتيم أيضاً، وسواء صحّت القصة التي رواها في النقش، من وضعه في السلة، وإلقائه في الماء، والتقاط غراف الماء آكي له، ثم ميل الرب عشتار إليه، حتى أضحى صاحب التاج، أم لم تصح، فالمهم فيها أنه نشأ يتيماً يدرك يتمه، ولقد اجتهد أن يغطي على هذا اليتم، حتى بادعاء ميل الرب عشتار إليه. لعله يكسب التوازن الاجتماعي، الذي أفتقده في اليتم. ولعله يعوض فقد الأب، هذه المؤسسة الرئيسية للكيان المجتمعي. وما كان في حاجة إلى ابتكار هذه الأسطورة وما فيها. ولا إلى حب عشتار، ليقنع الناس عبر التاريخ بعظمته. فقد كانت له الفتوح الواسعة، وكان له الدوي من المجد البعيد. وقد تكونت له إمبراطورية، تضم شعوباً متعددة. منها السومريون، وأهل عيلام، وعدد من الشعوب الأخرى، على البحر الأبيض والبحر الأسود. حتى صار أسطورة في خيال الناس من بعده وكابوس رعب. كان إذا قامت عليه ثورة في منطقة، دمرها حتى لا تجد العصافير لنفسها مأوى فيها.. وقد حكمت أسرته من بعده قرنين. ونشرت الثقافة السامية والسومرية، حيث حط الحافر المهر الأكادي حوالي ٥٠ سنة. أهذا قليل في ذلك الزمن السحيق؟

وحمورابي مجد آخر من أمجاد ما بين النهرين الضخمة. ملك من ملوك العراق. جاء بعد سارغون بحوالي ستة إلى سبعة قرون. ويعتبر مثيل الإمبراطور أغسطس في الرومان، أو الخليفة الرشيد في العباسيين، أو شارلمان في الفرنجة، أو السلطان القانوني في العثمانيين، كان عهده العصر الذهبي لمدينة بابل، التي كانت في ظله عاصمة الدنيا، ومجمع أهل الأرض، وأرجوحة الأحلام.

حمورابي هذا نشأ يتيماً بدوره، ويتيماً هدهد آماله العذاب في الحكم. ومعتزل الناس. أعد نفسه، وهو ابن الملك، ليكون الملك المقبل. ومن العبث أن نلاحق ما فعل اليتم فيه. وقد عفت مع القدم الآثار والرسوم، ولكن ليس من الصعب أن نرى في أعمالِه ملامح يتمه الأول. هذا اليتم، انعكس في ذاته رغبة عارمة في العدل وإقرار القانون، ومحبة عارمة للمحرومين، الذين كان يسميهم بذوي الرؤوس السوداء، ونهما حارقاً للفتح والغزو والتوسع، وهكذا أقام إمبراطورية امتدت حتى البحر المتوسط، وأعماق آسيا الصغرى. والأهم من هذا، أنه ترك للناس حجراً لامعاً من الديوريت الأسود المصقول. نقش في أعلاه رسماً، يتناول فيه من الآلهة ما سماه هو بأحكام الاستقامة. ونقش بعد ذلك في ٢٦٠٠ سطر من الخط المسماري، تشريعاً يتكون من ٢٨٢ مادة، ينظم في دقة وأحكام القانون المدني للمملكة. إنه قانون يشمل الملكية، والعقود، والزراعة، والتجارة، وأعمال المال، والزواج، والتبني، والإرث، وسير المرافعات القضائية....

ومن الطريف أن تقرأ فيه نصوصاً، حول الإعفاء من الخدمة العسكرية، أو التعويض عن التحسينات الزراعية، أو تحريم الثأر، أو المسؤولية عن ديون الزوجة، أو الرقابة على تجارة الخمور، أو النصوص المتعلقة بحقوق ذوي الرؤوس السوداء.

كل ذلك قبل ٤٠ قرنا. هذه المدونة القانونية، التي يحتفظ بها متحف اللوفر في باريس، منذ أن اكتشفت قبل مائة سنة ، جعلت حمورابي أعظم مشرع في العصور القديمة، وصاحب أول مجموعة قانونية في الدنيا. في مقدمتها كتب « أوكل الإله إلي أنا حمورابي إحقاق الحق والقضاء على الأشرار الأنجاس ومنع الأقوياء من سلب حق الضعفاء وإبرار ذوي الرؤوس السوداء كشروق الشمس. أنا حمورابي الراعي، إعصار الجهات

الأربع، رحبة الجاموس القوي، شحنة الغضب، صاعقة الملوك، ومذل الأعداء ومحطم المناوئين كما تتحطم صورة من طين». وكتب في نهاية المدونة « أنا حمورابي الملك الكامل، لقد أهداني الإله ذوي الرؤوس السوداء، وسلمني منصب الراعي عليهم. لقد بحثت لهم عن مصادر الرفاه، وجعلت الناس يبتهجون على المروج، ومنعت الخوف عنهم. هكذا عمل الراعي».

هل تراه في ايامه الأولى وهو يتيم عمل راعياً ، أم أن صفة الراعي التي يصف نفسه بها، لا تزال هي الكلمة المتصلة بأعماق ما لدينا، من تراث الرعاية والسياسة إلى اليوم. « وكلكلم راع وكل راع مسؤول عن رعيته». من يدري؟.

كاليغولا ونيرون يتيمان حتى الجنون

كان بودي لو تابعت حديث اليتامى التاريخيين الأولين. فحدثتكم عن جلجامش بطل الملحمة المشهورة فيما بين النهرين، أو عن رومولوس مؤسس روما الذي أرضعته الذئبة، أو عن غير هذا وغير ذاك، لكن اليتامى الآخرين، وما أكثرهم في كل العصور، تكاثروا يفرضون أنفسهم. كُورش في التاريخ الفارسي منهم، وقمبيز وأغسطس الروماني الذي منح أسمه لشهر أغسطس، ومنهم كذلك ابن زوجته تيبريوس، الذي تحمل اسمه إلى اليوم مدينة طبريا والبحيرة أمامها. ومنهم كذلك الإمبراطور الفيلسوف مارك أوريل ومنهم هادريان، ومنهم ومنهم... واراني مسوقاً للتوقف لحظات عند أثنين من المجانين أو المهزومين. ففي اليتامى من بلغ به اليُتم درجة الهَوَس، واختلاط الحق بالباطل، وعدم التفريق بين ما لقيصر وما لله. وإذا قاد اليتم بعضهم إلى التأمل الإلهي وإدراك الحق، فيبدو أن السبب نفسه قد يقود إلى عكسه، وإلى الهوس المجنون. الإمبراطور كاليغولا واحد من هؤلاء، فقد أباه وهو في السابعة. ولم يكن كاليغولا هذا اسمه، وإنما هو لقب اشتهر به منذ طفولته، ويعني «الحذاء العسكري الصغير». كان الجند ينادونه به، وهو مرافق لأبيه في حملاته على نهر الرين، لابساً الزي العسكري بينهم.

وكانت الإمبراطورية الرومانية في عهده، تشمل حوض البحر الأبيض المتوسط كله، مع فرنسا وبعض إنكلترا وقلب أوروبا. وكان لا

يزال في الثانية والعشرين، حين سمي لهذه الإمبراطورية سنة ٣٧ ميلادية. ويبدو أن القفزة كانت أعلى من احتماله، فأصابه الدوار بسرعة. ودوار المواقع العالية، دوار مدمر، لاسيما للمحرومين وأصحاب العُقد. وفيما كان الناس يستبشرون خيراً بالإمبراطور الشاب، الذي عفا عن المجرمين السياسيين، وخفّض الضرائب، ووزع هبات القمح المجانية على أهل روما، وأكثر من المهرجانات. كانت أحلام كاليغولا ، الفتى المريض المهزول المحلول التفكير، تتضخم وتنتفخ، وما لبث بعد بضعة أشهر، حتى أدى به إفراطه في الملاذ إلى المرض. وأدى به المرض، إلى أن يصاب بلوثة صار بها أشبه بالمجنون. لولا أنه ينادى بالإمبراطور، ومقره في البلاط الإمبراطوري. اهتزت الإمبراطورية مع اهتزاز شخصيته، وتقلب أطباعه. كان استهتاره المستبد انعكاساً ليتمه، وصورة لتضخم الأنا عنده. وبلغ به الغرور المهووس، أن طالب مجلس الشيوخ بإعلانه إلهاً. و لم يكن ذلك بدعاً في الإمبراطورية الرومانية. فقد كان المجلس أعلن قبله تأليه أباطرة آخرين. منهم أغسطس. قدموا للدولة الكثير. ولكن البدع أن يطلب كاليغولا درجة الألوهية أيضاً لأخواته البنات. ويقال أنه كان يعشق إحداهن. وحين ماتت حزن عليها أشد الحزن، وأمر بتأليهها بعد الموت. ودفعته أوهامه، إلى القيام بتصرفات، تبعث على السخرية. فقد بنى جسراً شاهقاً، بين تلتين من تلال روما لكي يستطيع، على حد زعمه، الاتصال بأخيه الرب جوبتير، وأمر بأن تقدم له القرابين والأضاحي، كما تقدم للأرباب المعبودة. كما حاول أن يرغم المواطنين على مناداته بالسيد المالك دومينوس. وكان معنى ذلك، أن جميع الناس قد أصبحوا عبيدا له. وسبحان ربك رب العزّة عما يصفون. بل طلب من اليهود أن يعبدوه بدلاً من الإله. وأراد أن يقيم صنم عبادته في قلب بيت المقدس، وحين تباطأ واليه في فلسطين في التنفيذ بعث يأمره

بالانتحار. وأمر بصنع تمثال لنفسه من الذهب الخالص، يحمله بنفسه في البحر إلى القدس.

وأخيراً انتهت المهزلة جميعاً نهاية فاجعة. قتل كاليغولا فجأة في قصره، على يد أحد الضباط. وقتلت معه زوجته الرابعة، وابنته الوحيدة، وكفى الله الناس شر الشخصية المجنونة، وشر إسرافها الشديد الذي أتلف الخزانة، ومد أيديها إلى جيوب الناس، مصادرة واغتصاباً ونهباً وابتزازاً.

شخصية أخرى مهزوزة التوازن هي شخصية نيرون. وإذا كان الكثيرون يعرفون هذا الاسم، فالقلائل جداً هم الذين يعرفون أنه يتيم، فقد أباه وهو في الثالثة من العمر. ووصل عرش الإمبراطورية بمؤامرة أمه، وهو في السادسة عشرة من العمر. وما بالك بفتى مهزوز الأوصال والعقلية، يصل عرش العالم في عصره! كان أول ما فعله إبعاد أمه. فلما حاولت البقاء وصية على العرش، أمر بقتلها وأبعد أحد أصدقائه، والياً على إسبانيا لينفرد بزوجته عشيقة له. ولفق لزوجته الأولى تهمة الخيانة وأعدمها. والناس يتهمونه بإحراق روما، والغناء بقيثارته على ضوء اللهيب، الذي ظل يلتهمها ستة أيام، ويحيلها إلى جهنم من العويل واللظى ورائحة القتار. ومع أن هذا الاتهام غير صحيح، إلا أنَّ الناس يصدقونه، لأنه عمل مجنون، جدير بحماقة كحماقة نيرون، الذي ما إن رأى روما تتخلص بالحريق من أحيائها القذرة النتنة، حتى بنى مكان الحريق قصره « المنزل الذهبي» فتنة العيون، بحدائقه، وزهره، وتماثيله. وحين طالبت الجماهير بمعاقبة المجرمين بالحريق، ألقى التهمة على المسيحيين، فذاقوا من الحكومة والناس أشنع العذاب، ولم يكن قد مضى على ظهور المسيحية وانتشارها إلا عقد أو عقدان من السنين.

أطرف ما في الأمر، أن هذا الشاب اليتيم المهووس مارس فوقيته وعقده على الجماهير وأرادها، عدا التأليه، أن تؤمن بأنه فنان عبقري. كان الغناء إحدى هواياته ونزواته. كان يتحرق ليسمع هتاف الاستحسان. ويستأجر لذلك المصفقين. ونزل فعلاً إلى المسارح يغني في نابولي. وسافر إلى اليونان، حوالي عام كامل يعرض خلاله مواهبه الفنية، في مهرجانات قورنث وأولمبيا ودلف. وحينما رفض أحد الكبراء في روما، أن يصفق استحساناً لصوت نيرون الإلهي، صدر أمر إليه بأن ينتحر.

بعد ١٤ سنة انتحر نيرون نفسه. بعد أن فرّ من روما، إثر ثورة قامت عليه. ولم يبق منه لا التاج الإلهي الذي رسمه على العملة تشبهاً بالأرباب. ولا شهر إبريل الذي حمل اسمه كما يفيد المؤرخون، ولا روما غيّرت اسمها إلى نيروبولس كما أعلن. وعاد التراب إلى التراب، ولم يبق منه سوى أطياف السوء والطغيان.

زياد بن أبيه تجاوز ما هو أكثر من اليتم

الأيتام الذين عرفهم تاريخ الإسلام، جمع غفير كثير لا نكاد نحصيه. والوصايا القرآنية بشأن اليتامى، متكررة متشددة. حتى لتكاد تجعل لهم مكانة خاصة في المجتمع المسلم. ولكن، هل كانت هذه الوصايا وحدها هي السبب في بروز من برز منهم؟ هل العناية بهم هي التي مشت بهم إلى التميز. أم أن ثمة بجانبها عنصراً شخصياً؟ دعونا نُسَمِّه الموهبة، أو الاستعداد الذاتي، أو العنصر الوهاج، هو الذي التهب فيهم بشكل أو بآخر، فاعليه ونشاطاً إنسانياً، عبقرية أيضاً. لانكاد نشك في ذلك. فإن الله جعل لكل شيء سبباً، على أن الناس لا يستوون في هذا العنصر الذي يملكون، لا تستوي الموهبة فيهم، لا في مقدار التوهج، ولا في القدرة، ولا في الاتجاه، فقد تكون بعض هذه المواهب متجهة إلى الشر أو بعضه. وقد تكون مغموسة كلقمة الزقوم بالنقمة والحقد الأسود. وقد تأخذ سبيلها إلى الخير وإلى الله. فاليتم في كل الأحوال، ليس أكثر من حافز دافع . وليس بالقائد الذي يرسم الطريق. إنه المحرك الذي يدفع العربة. وليس بالحوذي الذي يحدد السبيل والهدف الأخير.

ولنضرب مثلاً: زياد بن أبيه، هذا الذي نشأ لا يعرف أباً، ونسب إلى أمه سمية. يتم هذا الرجل يتم مضاعف، وبكاؤه الداخلي بكاء مضاعف أيضاً، وحافزه بالنتيجة مضاعف مضاعف أيضاً وأيضاً. وهل ثمة أقسى على النفس من أن يكون لكل الأطفال أب موجود، أو معروف

على الأقل، ويكون الأب مجهولاً؟ فالأم ترمى بأنها بغي. وهي الأم والأب للطفل في وقت معاً. ومع ذلك، فهل أضحى زياد داهية من دواهي العرب الدهماء بجهده؟. وكان لزياد أخوة من أمه، معروفو الآباء. فسمية كانت جارية للحارث بن كلدة الثقفي، كبير ثقيف والطبيب المشهور في الجاهلية. وله منها ابنه أبو بكرة بقيع، الذي كان على تعاون كامل مع أخيه من أمه زياد. لم يستنكف عن ذلك. وتعلم الطفل زياد الكتابة، ونشأ على الفصاحة وعرف بهذه وتلك. فلما كان في الرابعة عشرة من العمر، في أول اختطاط البصرة، وأول أيام عمر بن الخطاب، صار كاتب أبي موسى الأشعري هناك. وعهد إليه بتوزيع الغنائم على الجند. وقد قدم المدينة مرة، واستكفاه عمر أمراً، فقام به قياما مرضياً حسناً، وعاد إليه، وعند عمر المهاجرون والأنصار، وخطب خطبة لم يسمعوا بمثلها، فقال عمر « لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه»، أهي عصا اليتم يا ترى؟ ولقد استقر الفتى في البصرة، وكانت تفوض إليه أمورها بعد ذلك عند غياب ولاتها، وهي موئل العرب أيام الفتوح. فوضها إليه أبو موسى الأشعري، ثم عبد الله بن عامر. ويبدو أنه اعتزل بعد ذلك فترة، إلى أن كانت خلافة الإمام علي، فتولى الخراج وبيت المال له بعد وقعة الجمل. ثم استخلفه ابن عباس على البصرة. وكان صاحب مالها. ولما اضطرب الأمر على علي، وطمع أهل فارس وكرمان بكسر الخراج، استشار علي من حوله من الناس، فقال ابن عباس: ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب عالم بالسياسة كاف لما ولي. فقال: من هو؟

قال: زياد، فأمر علي بتوليته، وسيره إليها في جمع كثير، فوطئ بهم أهل فارس، وكانت قد اضطرمت، فلم يزل يبعث إلى رؤوسهم يعد من ينصره ويمنيه، ويخوف من امتنع عليه. وضرب بعضهم ببعض، فدل

بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة، وأقامت طائفة، فقتل بعضهم بعضاً، وصفت له فارس، ولم يلق جمعاً ولا حرباً. وفعل مثل ذلك بكرمان، ونزل اصطخر وحصن قلعة بالقرب منها، فنزلها، وعرفت زمنا بقلعة زياد. وفي تلك الفترة، والأمور بين علي ومعاوية في مد وجزر، بعث معاوية زياد رسالة هي بين الترغيب والترهيب، وفيها تعريض بشائعة معروفة في الناس تقول: إن زياد هو ابن أبي سفيان. فلما قرأ زياد الكتاب، غضب وقام في الناس وخطب قائلاً: العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد. يخوفني بقصده إياي. وبيني وبينه ابن عم لرسول الله في ٧٠ ألفاً من المهاجرين والأنصار، واضعي سيوفهم على أعناقهم.

وبلغ الأمر علياً، فكتب إلى زياد: إني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلا. وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه، فاحذر ثم احذر.

ولكن سرعان ما قتل علي بعد ذلك، واستخلف معاوية. واسقط في يد زياد فلم يجد إلا لمعاندة. أرسل معاوية يطلب المال الذي عنده، فقال: لم يبق عندي شيء، لقد صرفت المال في وجهه، واستودعت بعضه لنازلة إن نزلت، وحملت ما فضل إلى أمير المؤمنين رحمة الله عليه. فكتب إليه معاوية أن أقبل ننظر في ما وليت فامتنع، ثم تهدده بالقتل فأجاب زياد: لست بارحاً مكاني. فأمر معاوية فقبض على أولاد زياد والأكابر في البصرة. وهدده بقتلهم، فلم يلن زياد حتى توسط أخوه أبو بكرة لتخليصهم، وكانوا يقدمون إلى النطع حين وصل كتاب معاوية بإطلاقهم، ورأى زياد في ذلك منة من معاوية، فكان ذلك الموقف سبب المصالحة معه، فقدم عليه بدمشق، فأغدق عليه الأموال والعطايا. بلغ ما بلغ، وما يزال جرح الأب المجهول قائماً في ذاته يؤرقه، ورأى تقربا من معاوية أن يستغل الشائعة المعروفة في أنه ابن أبي سفيان، فدس إلى

معاوية من يغريه بها. والتقطها معاوية بدهائه السياسي المعروف، فجاء بمن شهد بذلك واستحلفه بنسبه.. وصار زياد أخاً لأمير المؤمنين، وتولى بعد ذلك البصرة، ثم جمع إليها الكوفة وفارس وكرمان والبحرين وعمان وسجستان وأطراف السند. أي صار قسيم أمير المؤمنين له المشرق كله. والناس لا يزالون يحفظون خطبته البتراء، التي افتتح بها ولاية البصرة، والتي يقول فيها: « أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء، والفجر المودي بأهله إلى النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم كأن لم تسمعوا نبي الله ولم تقرؤوا كتاب الله. إني لأقسم بالله لآخذن الولي بالولي والمقيم بالظاعن. والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول أنج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم قناتكم». وما يزال الناس كذلك، يذكرون لزياد طريقته الرهيبة في السياسة، يوم أمر صاحب الشرطة أن لا يجد أمرءاً خارج بيته بعد صلاة العشاء، إلا ضرب عنقه. وجيء ذات يوم بإعرابي، حلف أنه قدم البصرة آنفاً، ولا يعلم شيئاً من الأمر. فقال زياد: أظنك صادقاً ولكن في قتلك صلاحاً للأمة. وضرب عنقه.

واستتبت لزياد الأمور.

ترى هل كان ينتقم بهذه السياسة لكل ماضيه، بعد أن تجاوز ما هو أكثر من اليتم؟ لعله ولعله!

طارق بن زياد
يلمع النجم كالشهاب ثم غاب

بعض الرجال، تعبر أطيافهم في التاريخ عبور الشهب في السماء. تظهر فجأة من الفضاء اللانهائي، وتلتمع، ثم تلتمع لحظات، ثم تغيب من جديد، في اللانهاية التي ظهرت منها أول مرة، تاركة في الأنظار دهشة اللمعان، وخيط الاحتراق العابر. من هؤلاء العابرين كالشهب، الرجل الذي تعرفون، طارق بن زياد. إن اسمه يجلجل في التاريخ، بطلاً من أبطالنا القوميين، ولكن من تراه يعرف، بداية هذا البطل كيف كانت، ونهايته أيان مرساها؟

كل التألق الذي طوق اسم الرجل، الذي فتح للعرب باب الملحمة الأندلسية الرائعة، التي استمرت ثمانية قرون، لم تشفع في كشف نسبه السابق، ولا في كشف مصيره، بقيت منه فقط قصة السنوات الثلاث التي استغرقها الفتح، ولا شيء قبلها ولا شيء بعد. فمن هو طارق؟ ومن زياد أبوه؟ إذا اختلف المؤرخون في أصله: همذاني هو من الفرس، أم عربي من « قبيلة الصاف» من كهلان اليمنية، أم هو بربري مغربي من قبيلة «نفزة» البربرية ، وهو الأرجح، فإنهم لم يختلفوا في أنه مولى لموسى نصير، وثمة قول بأنه رباه، ويسميه بعضهم طارق بن عبد الله بن ونو الزناتي.

واسم عبد الله، كان يمنح لمن يؤسرون صغاراً، فلا يعرف لهم أب أو أم. فالرجل إذن يتيم. أو انتزع من أهله، فحرموا منه وحرم منهم. فهو بحكم اليتيم. وليس من شك بعد ذلك في أمرين: إتقانه مع البربرية اللغة العربية حتى البلاغة فيها، بدليل تلك البلاغة التي تجلت في خطبته المشهورة. والأمر الثاني، تميزه في العمل الإداري والحربي، واطمئنان موسى إليه، بعد أن دوخ البربر سبياً وفتحاً. ولولا هذا وذاك، لم يستعمله موسى على طنجة المطلة على بحر الزقاق على العدوة بين المغرب والأندلس، ولم يجعل معه جيشاً كثيفاً جله من البربر، ويجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض، ولم يأتمنه على ثغر بحري معهم في أقصى الأرض الإسلامية يومذاك. وتتساءل عن دوافع هذا التميز اللغوي، والإداري، والحربي الذي برز فيه طارق. فلا تجد إلا أنه مولى، فكيانه كله نفس تتحرق للتميز والتجاوز. وكان عصره عصر استقرار وفتوح تجري على جبهات الترك، مع قتيبة بن مسلم الباهلي، وعلى جبهة السند مع محمد بن القاسم الثقفي، وجبهات الروم مع مسلمة بن عبد الملك، فكان هذا الجهاد في سبيل الله هو سبيل التميز الكبير في ذلك الوقت. وكان على الفرصة فقط أن تأتي طارقاً فلا ينقصه غيرها، وجاءت الفرصة حين أمره موسى بالعبور إلى الأندلس للجهاد.

ويسلبون طارقاً وسيده موسى الكثير من المجد، حين يزعمون أن الجيوش الإسلامية عبرت المضيق، الذي عرف باسم طارق على مركب أو مراكب، لرجل من القوط هو الكونت يوليان الذي تآمر مع المسلمين، كأنما لم يكن للعرب من أسطول في البحر، وكأنما كان فتح الأندلس صدفة، قامت على خيانة خائن. وهما وهمان اثنان، من عدد من الأوهام الأخرى التي لحقت بقصة الفتح الأندلسي، ونثرت الضباب حول حقيقته. فقد كان للعرب منذ عهد معاوية، قبل ٤٠ سنة أسطول

بحري قوي في غربي البحر المتوسط. كان يغزو دون انقطاع وفي أقصى البحر: صقلية، وكورسيكا، وسردينيا، وجزر البليار «ميورقة ومنورقة». وكان لدى موسى بن نصير مشروع جريء جداً لم يخفه، يريد أن يفتح عن طريق إسبانيا روما، ويطوق من الغرب القسطنطينية.

وحين ذهب موسى إلى الشام، يستشير الخليفة في مشروعه، كان في ركابه من الأسرى عشرون من حكام جزر البحر هذه. وقد صفى بهم قواعد بيزنطة في غرب المتوسط.

ومن جهة أخرى، كان الفتح قائماً على تخطيط وتفكير عميقين، واستعداد مسبق محسوب. ولم يكن مجرد معجزة قادتها العناية الإلهية فحسب. فقد سبقته غارات استطلاعية، بعضها قام به بعض الناقمين على القوط. كالكونت يوليان، وبعضها قام به العرب كغزوة طريف، الذي سبق طارقاً ونزل في البر الإسباني الجنوبي، في موقع المدينة التي لا تزال تحمل اسم طريف، والتي اشتقت منها كلمة التعرفة الجمركية في اللغات الأوروبية. ولم يكن الجيش الذي أعده طارق للعبور قليلاً، كان سبعة آلاف مقاتل. ولم يكن برياً فقط ولكنه بحري أيضاً. حشد له السفن من الأسطول العربي. وليس معقولاً أن تنقل سبعة آلاف من العرب والبربر في أربعة سفن، عدا الخيل والعتاد والمؤن. وأن يأتمن المسلمون في نقلها رجلاً قوطياً، مهما بلغت موجدته على قومه، ويذكرون أن طارقاً نزل في البر الإسباني عند جبل، عرف فيما بعد باسمه، دون أن يلقى مقاومة تذكر. والواقع أن هذا الجبل، كان ولا يزال، من أهم المواقع الاستراتيجية المحروسة على الدوام، منذ العهد الفينيقي. كان يسمى « الجبل المجوف»، يعنون المغارة الكبيرة التي فيه، والتي يسميها الإنكليز اليوم، مغارة القديس جورج. ولقد لقي طارق هناك أعنف المقاومة. واضطر إلى أن يقوم بحركة التفاف. وإلى أن يطوق

الجبل أثناء الليل، وينقض عليهم من موضع صخري وعر وطئه بالمجاديف، وجيف الدواب. وحين استولى على الجبل، بنى عليه سور ظل يسمى « سور العرب»، وأقام بجانبه قاعدة عسكرية، صارت فيما بعد مدينة تعرف باسم « الجزيرة الخضراء».

ويذكرون أنه أحرق المراكب التي حملته، وحملت جيشه. ومع أن القصة نفسها، رويت عن أرياط الحبشي حين عبر إلى اليمن، وعن أسد بن الفرات الذي فتح صقلية، وعن القائد الإسباني كورتيز عند فتحه المكسيك، إلا أن إحراق طارق للسفن - إن صح - كان يرمي إلى تطمين من معه من العرب بأنه لن يتركهم أبداً للعدو. وتألبت عليه بسرعة جيوش القوط. فاستنجد بسيده موسى، الذي أغاثه بخمسة آلاف آخرين، عبروا بدورهم البحر على الأسطول العربي، وحضروا المعركة الفاصلة التي استمرت ثمانية أيام، ما بين ٢٨ رمضان والخامس من شوال سنة ٩٢ هجرية. وظن الناس إنها الفناء، ولم تكن بالأندلس مقتلة أعظم منها. وظلت العظام على أرض المعركة من بعدها دهراً طويلاً. المعارك التالية التي فتحت الأندلس، فإسبانيا للمسلمين، كانت تتمة هذا الفتح. برغم إسراع موسى بن نصير لقطف ثمار النصر، وإتمام الفتح مع طارق، إلا أن اسم طارق ظل الاسم الأول في الفتح الأندلسي. لقد تجاوز سيده. وعاد الاثنان معاً بغنائم الظفر إلى الشام. ثم لم يذكر اسم طارق بعد ذلك أبداً. ولكن، سجل التاريخ انتصار المولى اليتيم، هذا الشهاب الذي التمع ثلاث سنوات، ثم اختفى إلى الأبد.

اليتيم عماد الدين زنكي

المؤرخ المشهور ابن الأثير، صاحب كتاب «الكامل في التاريخ»، كتب كتاباً آخر غيره، سماه « التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»، تكاد تحسبه كتب للتمجيد والتعظيم، بالبيت الذي كان يحكم الموصل. بلد ابن الأثير أيام ابن الأثير. وما من شك في أن مؤرخنا الرصين كان يحابي أصحاب بلده، فيختصر خبراً مسيئاً هنا، ويمر المرور العابر بخبر يؤذيهم هناك. ولكن ما من شك أيضاً في أن لمحاباته أساساً. وفي أن مبدأ الحيدة لم ينزعج كثيراً بهذه المحاباة. وقسم كبير من صفحات الكتاب، اختصه ابن الأثير بالأتابك عماد الدين زنكي، الذي يدعوه بالشهيد، فمن الشهيد؟

قد يعرفه بعض الذين شهدوا شيئاً من تاريخ الإسلام في العهد الصليبي، ولكن هل يذكر أحد أنه قائد الملحمة الكبرى ضد غزاة الاحتلال، ذوي العيون الزرق والسيوف الحديدية الثقيلة؟ وأنه صاحب شعار وحدة الجبهة الإسلامية ضد الفرنجة المحتلين، والعامل عليها؟ وأنه لولاه، لولا عماد الدين هذا، لم يكن صلاح الدين ولا كانت حطين؟

زنكي الذي نذكر، هو أحد الأيتام في الإسلام، أبوه «أقسنقر» مملوك تركي كان للسلطان ملك شاه السلجوقي، سلطان الإمبراطورية السلجوقية الممتدة، كما كان يقول صاحبها نفسه، بين البحرين: بحر قزوين عند بلاد الترك، والبحر الأبيض المتوسط. وقد منح السلطان لآقسنقر ملك حلب ولكن آقسنقر، قتل على أبوابها على يدي شقيق

السلطان تاركا ولداً عمره عشر سنوات، هـذا الولـد هـو زنكـي، الـذي حمله قادة أبيه إلى بغداد هاربين. كان ذلك قبـل قيام الحروب الصليبيـة بسنوات معدودة، وبالضبط سنة ٥٨٧. ترى مـا الـذي كـان يضطـرم في خاطر هذا الفتى اليتيم؟ لا العلـم خطـر في بالـه، ولا الانصـراف للديـن. همه كان هـم العصـر كلـه «القتـال»، يجـب أن يكـون الفـارس الأول، وتمرس بالقتال عاناه، عرف أسراره، وأحوالـه أتقـن كـل البراعـات الـتي أتقنها قادة أبيه، وتنقل مع مماليك أبيه أنّى تنقلوا، في العراق والجزيرة قبل أن يعود فيستقر في بغداد.

كان يعرف أن وجوده بين بابي الخليفة والسلطان، قد يفتح له بـاب المجد. وجاءه بعض كبار القادة، يطلب منه أن يكون في جملـة عسـاكره. فاستشـار جماعتـه فقـال أحدهـم: التركمـان تقــول في أمثالهـا، إذا أراد الإنسان أن يضع على رأسه حجراً، فليكن من جبل كبير.

ونحن إذا كنا لابد أن نخدم الناس، فلنخدم السلطان نفسه أولاً.

فهز الشاب زنكي رأسه مؤمناً. بلى. وضرب الرجـل الوتـر الحسـاس عند الفتى. فليكن حجراً كبيراً، فإما العمـل مـع السـلطان، أو الانتظـار. ولم ينتظر طويلاً، سمـاه السـلطان لإقطـاع البصـرة وواسـط، فـأظهر مـن الكفايـة وتـأمين الطـرق وحمايـة النـاس والحـزم، مـا دفـع السـلطان إلى استدعائه ليكون شحنة بغداد والعراق، أي مدير الشرطة والأمـن. ثـم لم يلبث طويلاً بعـد ذلـك، حتـى سمـي أميراً لمنطقـة الموصـل، وديـار بكـر ونصبين.

والتمس زنكي أحد ابناء السلطان، ليربيه معه ويستحق بذلك لقـب الأتـابك فكـان لـه ذلـك. وأخــذ اثنـين بـدل الواحـد. والأتـابك أي «الأب الأمـير» لقـب الألقـاب في تلـك الأيـام، ولـه الصولـة العسـكرية والسياسية. وانفتح علـى زنكـي بـاب الأحـلام الكـبرى بهـذه التسـمية،

فالموصل في تلك الفترة، هي قاعدة العمق الإستراتيجي لبلاد الشام، في المقاومة للصليبية وللصليبيين. كان الفرنجة المحتلون قد بلغوا غاية العربدة، في التجبر والقوة وقهر الأمراء المسلمين، كانوا يحتلون ما بين ماردين إلى إنطاكية، إلى طرابلس، إلى فلسطين جميعاً، حتى عريش مصر. راياتهم منشورة خلال الديار، وبطشهم ينال الكبير والصغير، حتى انقطعت طرق التجارة والحج في الشام فليس إلا طريق البادية بين دمشق والرحبة. وأما باقيها فهو للمخاوف، والمخاطرة بالأموال والأنفس، أو لدفع الإتاوات الثقيلة. وفيما كان يستعرض الصليبيون الأسرى في دمشق. يخيرونهم بين التحرر أو البقاء إذا هم يقاسمون أمراء حلب نصف خراج الأرض، حتى على التي ليس بينها وبين المدينة عشرون خطوة، وأما الأمراء المسلمون فكانوا كالقطط المختصمة، إمارات متعددة، ومواء كثير، وخصومات على أشبار من الأرض، وتراشق بالتقصير والتخاذل، وأجواء الخذلان تلف الجميع. وكان على عماد الدين زنكي أن يضع مشروع الإنقاذ الذي هو في الوقت نفسه مشروع مجده، وهو توحيد الجبهة الإسلامية.

تابع الأتابك زنكي هذا المشروع عشرين سنة بطولها، وبما ضمنت من قعقعة سيوف ومرارة سياسة وحصار وترقب، ضم إلى الموصل أولاً الإمارات الفسيفسائية في الجزيرة، وسمعت به حلب، فجاء أهلها يرجون منه الإنقاذ فامتلكها، مقيماً محوراً كالسهم الحديد ما بين الموصل وحلب. واستصفى الحصون الباقية في شمال العراق والشام حصناً بعد حصن، حتى حماة، بعضها أخذه بالقوة، وبعضها بالتهديد وبعض بالمناورة والغدر. ولكن النواة الصلبة لهذه الجبهة الواحدة كانت قد ظهرت في هذه الدولة الأتابكية، وقاتل في سبيل ذلك الخليفة نفسه والإمبراطور البيزنطي بالإضافة إلى الصليبيين. البلد العصبي الوحيد الذي

عانده في الشام كان دمشق. حاصرها فلم يفلح. ولقد عرض أن يتزوج ملكتها العجوز صفوة الملك زمرد خاتون، فأرسلوا إليه العجوز وأغلقوا دونه الأبواب. وأخيراً رأى زنكي إنظار دمشق وتوجيه السهم إلى الشمال، إلى أعمق نقطة وصلها الاحتلال الصليبي داخل الأرض الإسلامية، إمارة الرها وهي «أورفة» اليوم. وانتهز فرصة غياب أميرها الصليبي ببعض الغزو، وفاجأها بالحصار والناس في عيد الميلاد. كانت كتائبه كقطع السحاب تصب الموت والحمم، وعمل النقابون في السور والحراقات في آلات الدفاع، وفي المدافعين حتى حالت الرها طوقاً من الجحيم. واستسلمت، وكان هذا الفتح أول الانهيار الصليبي كله. كانت الرها أول إمارة صليبية قامت في المشرق. وأول إمارة انهارت وبين العهدين خمس وأربعون سنة. كما كانت أول برهان للناس يوم ذاك أن لا بديل لتوحيد الجبهة الإسلامية إن شاء الله، وشاؤوا الخلاص من ذل الاحتلال والقلب الكسير. وضربت باسم زنكي كل الأبواق والطبول، وتطلعت إليه كل العيون التي ترهقها الذلة. لقد بلغ اليتيم بعض ما تمنى. وكان على عزم الخطوات التالية، حين فاجأه خادم من خدمه بخنجر وهو نائم. ولكن، هل قضي يا ترى على أمله والأحلام؟ لقد عادت فتمثلت في ابنه نور الدين محمود، وحدة الجبهة ضد العدو الأزرق، كانت قد صارت حقيقة. ومثل هذا الحلم الكبير، لم يكن ليموت والناس كلهم وراءه. فهل من مذكر؟

الإمام الشافعي يتنبأ أيضاً

في القرن الهجري الأول، كان البروز الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، لأهل السياسة والفتح والبطش.

ثم تغير الأمر في القرنين الثاني والثالث، فصار لأهل العلم استقرت الدولة الإسلامية، وهدأت ضربات السنابك على الجبهات، ونامت أبواق النفير أو ضاعت. وفيما قل صليل السيوف برز صرير الأقلام، وعرضت جباه العلماء.

كل العلوم انساحت بين الناس، وتداولتها الحلقات الدراسية في المساجد وخارجها، وكان أكثر العلوم احتراما «فقه الدين» لقد كان يحتضن القرآن الكريم، والتفسير، والحديث النبوي من جهة، ويحتضن المنطق والقياس والتعليل والاجتهاد من جهة أخرى. كما يتضمن، إلى هذا وذاك، التفقه باللغة والنحو والبيان والأدب. كان العلم الشامل، وكان المجتمع الإسلامي كله في حاجة إليه، معاملة وتشريعاً. لهذا عرف الفقه الإسلامي عصره الذهبي في القرن الثاني، وفي القرن الثالث أو بعض الثالث، وبرز كبار فقهاء المذاهب الإسلامية، التي نعرف. ظهرت كلها في هذه الفترة: مذهب أبي حنيفة، ومالك بن انس، وأحمد بن حنبل، ومذهب الإمام زيد، والإمام جعفر الصادق. كما ظهرت المذاهب الأخرى التي اندثرت كمذهب الإمام الأوزاعي، ومذهب الليث بن سعد، ثم ظهر مذهب داود الظاهري، ومذهب الطبري، بالإضافة إلى

فقه الخوارج، ومع هؤلاء وفي هذه الفترة نفسها ظهر الإمام الشافعي محمد بن إدريس الإمام اليتيم.

ويبدو بوضوح، مما رواه الشافعي عن طفولته، أن اليتم والفقه، كانا اللهبين اللذين لذعا قلب الفتى وصدره، والنداءين المباركين، اللذين دفعاه في طريق العلم. كل ما في كيانه من الموهبة والإمكان، وضعه لينتصر على يتمه وعلى متربته، وإذا به يقفز الدرجات قفزاً. ويقول: ولدت بغزة سنة خمسين ومائة، ومات أبي فحُملت إلى مكة وأنا ابن سنتين.

ويضيف قائلاً عن تعلمه: كنت يتيماً في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم. وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، وكان هذا أول ما كسبه اليتيم بجهده.

ويضيف الشافعي قائلاً: كنت أنا في الكتّاب، أسمع المعلم يلقن الصبي الآية، فأحفظها أنا، ولقد كنت وهم يكتبون أئمتهم أي ما يتعلمونه كل يوم. فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم أكون حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: لا يحل أن آخذ منك شيئاً.

واستمر الصبي على ذلك، حتى جمع القرآن وهو ابن سبع سنين.

بعد قليل، انتقل الشافعي إلى المسجد، يختلف إلى حلقات العلماء، ويسمع منهم الحديث النبوي. وكان طلب الحديث زينة العصر، وموضع تباهي العلماء. لم يقف ضيق العيش، ولا قلة ذات اليد، دون تطلع الشافعي إلى العلم. يتذكر ذلك في كهولته فيقول: كنت أجالس الناس، وأحفظ، ثم اشتهيت أن أدون، فكنت آخذ العظام و الأكتاف، فأكتب فيها الحديث النبوي الشريف. وكنت أتلقف الخزف والدفوف وكرب النخل، وأجيء إلى الدواوين، فأستوهب منها الظهور فأكتب فيها، حتى كانت لأمي « حباب» (أي: جرار) فملأتها أكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة

حديثاً وكنت ابن عشر أو شبهها، وقد حفظت الموطأ لمالك بن أنس، فسرت إلى نسيب لي يعرف شدة فاقتي وحاجتي. فرآني أطلب العلم فقال لي: لا تعجل بهذا، وأقبل على ما ينفعك. يعني التكسب. فجعلت لذتي في العلم وطلبه حتى «رزق الله ما رزق.. ». ولم يكن الطفل الشافعي، يدرك وهو اليتيم المسكين، سوى شيء واحد، أنه يريد العلم ليتميز، ليتخلص من المربكين المرهقين اليتم والمتربة. ولكنه وجد، وهو بعد فتى من دلّه على الطريق الصحيح. استهواه أن يلقف العربية من أفواه العرب. فخرج يطلب النحو والأدب. ورآه شيخ الحرم المكي ومفتي مكة أبو خالد مسلم بن خالد الزنجي المخزوني الفقيه العابد، رآه يختلف إلى البادية فأعترضه، ويروي الشافعي أنه قال له: يا فتى من أين أنت؟ قلت: من مكة. قال: أين منزلك؟ قلت: بشعب الخيف. قال: من أي قبيلة؟ قلت: من عبد مناف. قال: بخ، بخ لقد شرفك الله بالدنيا والآخرة، إلا جعلت فهمك في هذا الفقه فكان أحسن بك؟

وتكررت النصيحة ذاتها للفتى الشافعي مرة أخرى، إذ استهواه الشعر. يقول: فكنت أكتبه وآتي البوادي فأسمع منهم، وخرجت من مكة مرة وأنا أتمثل بشعر للبيد وأضرب بوحشية قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجبة، فقال: مثلك يذهب بمروءته في مثل هذا؟ رجل من قريش ثم ابن عبد المطلب رضي من دنياه أن يكون معلماً؟ ما الشعر؟ الشعر إذا أحكمت فيه قعدت معلماً. أين أنت من الفقه؟ تفقه يصلك الله.

قال الشافعي فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي، ورجعت إلى مكة. وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد الزنجي، فكان يحيل الفتية علي ويقول: سلوا هذا الغلام.

على أن الفقه لم يصرفه عن العربية، ولا عن الشعر، ولكنه جمع الحسنيين. ورأى أن الفقه لا يستقيم إلا بالفهم العميق للغة والمعاني. فلزم قبيلة «هذيل» في البادية يتعلم كلامها، وكانت أفصح العرب، ١٧ سنة، يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم ويختلف إلى مكة، فيدرس الفقه على أهله. فلما رجع أخيراً إلى أهله، كان قد أمتلأ شعراً، وأدباً، وأخباراً وأياماً، عدا حفظه القرآن، وعدا الفقه أيضاً. ورحل الشافعي إلى المدينة يلقى مالك بن انس، ويأخذ عنه كتابه « الموطأ» مباشرة. ولزمه حتى مات. ثم رحل إلى اليمن، وهناك اتهم بالتشيع وامتحن، والعهد عهد الرشيد. ولم يكن عهد الرشيد في ذلك الحين يحتمل مثل هذه التهمة. فحمل من اليمن إلى بغداد وسيق إلى الرشيد بنفسه، فعفا عنه، ولكنه أغتنم الفرصة، فلزم محمد بن الحسن الشيباني، قاضي الرشيد. واخذ عنه فقه أبي حنيفة، فاجتمع له علم أهل الحديث من مالك بن انس، وعلم أهل الرأي من الشيباني، ونظم الأصول والقواعد وأقام مذهبه الفقهي على هذين الأساسين. فهو حتى اليوم أحد مذاهب السنة الأربعة. وفي سنة ١٩٩ انصرف إلى مصر، ليكتب خلال السنوات التالية كتابه الأكبر الذي سماه «الأم» وهو عماد مذهبه. ثم ليموت بعد قليل سنة ٢٠٤ للهجرة. ترى هل كان هذا اليتيم يحيي ذكر أمه، وهو يسمي كتابه الرئيس بكتاب «الأم»؟

حي بن يقظان يتيم من ابناء الخيال

ابن طفيل، أبو بكر محمد بن عبد الملك، أندلسي كبير من رجال القرن السادس للهجرة أيام الحملات الصليبية، كان موسوعة في المعرفة. فهو: شاعر، وأديب، طبيب، رياضي، فلكي، فيلسوف، بالإضافة إلى أنه فقيه عالم بالأصول والجدل، وحافظ للحديث ورجل دولة. وقد تولى في غرناطة منصب الحجابة، كما انتقل وزيراً لدى سلطان الموحدين في المغرب أبي يعقوب يوسف، وظل طبيباً له حوالي اثنتين وعشرين سنة. هذا الفيلسوف الأندلسي ابتكر شخصية صارت أشهر منه، حتى صار يُعرف بها، هي شخصية حي بن يقظان. وليس في مخلوقات الله حي ولا يقظان، ولكن هذه الشخصية صارت في شهرتها، وفي شأنها، أكثر حياة من الأحياء، فكأنما انتقل الحي من عالم الوهم إلى عالم الواقع، ودرج على الأرض بشراً سوياً. ولست تدري لم ابتكر ابن طفيل شخصية حي وجعله يتيماً. لعله أدرك، أن ذلك يعمق إنسانيته، ويحفز نفسه وفكره، ويؤهله للمهمة الفكرية الصعبة التي يعده لها ويعدها له. هذه المهمة هي أن يحمل ويعبر عن أسرار الحكمة المشرقية. وما الحكمة المشرقية؟ إنها المذهب العقلي الذي يعتقد أن في وسع الإنسان، سليم الفطرة دون أي تدخل من فكر أو أحد، أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول. وأن يصل بقواه الطبيعية، التي منحه الله، إلى معرفة الله في كل شيء، وإلى إدراك وحدانيته، ومعرفة العالم معه وقوانين العلم، ونظم العمل ومبادئ الأخلاق. يقول ابن طفيل: إن سلفنا الصالح، رضي الله عنهم، ذكروا

أن حي بن يقظان وجد في جزيرة من جزر الهند، التي تحت خط الاستواء. هناك يتولد الإنسان من غير أب ولا أم.

ومن الناس، كما يقول ابن طفيل، من أنكر ذلك، وروى من أمره خبراً آخر قال: إنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكناف، عامرة بالناس، يملكها رجل شديد الأنفة والغيرة، وكانت له أخت ذات جمال فعضلها ومنعها الزواج، إذ لم يجد لها كفواً. وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سراً، وحملت منه، فلما خافت أن يفتضح أمرها وضعت طفلها في تابوت أحكمت زمَّه، بعد أن أروته من الرضاع، وخرجت في أول الليل فقذفته في اليم، فصادف ذلك جري الماء بقوة المد، فاحتمله المد من ليلته إلى ساحل جزيرة أخرى، وكان المد يصل في ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه بعد عام، فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر، مستورة عن الرياح والمطر، محجوبة عن الشمس، ثم أخذ الماء في النقص، فبقي التابوت في ذلك الموضع، وتراكمت بعد ذلك الرمال حتى ردمت مدخل الماء، وكانت مسامير التابوت قد قلقت عند رمي الماء إياه في تلك الأجمة، فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى فوقع صوته في أذن ظبية فقدت طلاها، فتتبعت الصوت حتى وصلت التابوت، ففحصت بأظلافها حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه، فحنَّت الظبية عليه وألقمته حلمتها، ومازالت تتعهده وتربّيه. لم يكن بالهام يتمه، ولكن ما ترتب على هذا اليتم من إمكان المعرفة الذاتية الإنسانية لكل شيء وضرورة هذه المعرفة. فقد ألف الطفل تلك الظبية وألِفته، فكانت لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي، ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع فتربى الطفل، وتدرَّج في المشي والتغذي من الشجر المثمر، حتى ألِفته الوحوش بدورها وألِفها، وحكى أصواتها، وكان قد بلغ سبع سنوات حين لاحظ أن الحيوانات كاسية، وأنه هو عار، وأنها

تدافع عن نفسها، وهو أعزل، فاتخذ من ورق الشجر سترة، ومن عصيِّها ما يدفع به عن نفسه. وبدأت ملحمة المعرفة الذاتية تنمو عند الطفل اليتيم حين رأى أن الظبية تسكن حركاتها أمامه وتموت. وبكى، وصرخ فلم تردُّ عليه، وهو لا يعرف لذلك سبباً، ولاحظ أنه إذا أغمض عينيه لا يرى وإذا سد أذنيه لا يسمع، ففتش في أعضاء الظبية الظاهرة عما يعيق حركاتها وحياتها فلم يجد، فعزم على شق صدرها ليعرف العلة، وبواسطة شق حجر، مع بعض القصب اليابس، فتح الصدر إلى القلب وعرف أن تخثر الدم في تجويفه الأيمن، كان السبب في توقف الحياة. ولما جاف جسد الظبية تعلم ابن يقظان أن يدفنه حين رأى غراباً يدفن آخر من الغربان. ثم اكتشف النار وكيف تحرق الأشياء، وتصفّح الأجسام في عالم الكون والفساد، فعرف أوصافها وحركاتها. وبينما كان ابن يقظان ينمو ويكبر، كان اكتشافه للمعرفة ينمو معه ويكبر وانتقل من العالم الحيواني إلى العالم الروحاني بالمنطق العقلي وعرف مبدأ السببية. ثم عالم الأفلاك، ثم اكتشف حدوث العالم إلى أن انتهى إلى معرفة الواجب الوجود، وإلى وحدانيته، وإلى تنزهه سبحانه عن الجسمانيات.

كان حي بن يقظان قد صار أثناء ذلك رجلاً، وقد غني عن ذاته وعن جميع الذوات الأخرى، ولم يعد يرى في الوجود إلا الواحد الحي القيوم. وعرف أن حقيقة ذاته، هي ذات الحق ولكن كيف يعيد ابن طفيل، هذا اليتيم المتوحد الصوفي، إلى المجتمع الإنساني؟ ابن طفيل يكمل القصة بقصة سلامان وآسال، وهما فتيان من جزيرة مجاورة نشأا على ملة صحيحة وقاما بجميع ما تقضي به وتفقها بالشريعة، فأما آسال فكان اشد غوصاً على الباطن والمعاني الروحية، وأما سلامان فأشد احتفاظاً بالظاهر وبعداً عن التأويل والتأمل. وتعلق الأول بطلب العزلة، والثاني بملازمة الجماعة. وسمع آسال بحي بن يقظان وجزيرته، فأجمع أن يرتحل

إليه، وهكذا التقى الناسكان. وحين رأى ابن يقظان من بعيد بعض النسَّاك العباد المنقطعين انصرفوا بعيداً عنه، وأما ابن يقظان فدُهش. ودُهش أن يرى شبيهاً له، ولم يكن رأى إنساناً من قبل، واقتفى أثر آسال الذي هرب وأخذ في الصلاة، وراقبه ابن يقظان ثم اقترب منه فعرف آسال أنه لا يتكلم، فقرر أن يعلمه اللغة والدين التماساً للأجر، وعرف منه قصته، وقصة نشأته، وما وصل إليه من المعرفة بذاته فدُهش، دُهش أن يتطابق ذلك مع معتقده في ا لله ووحدانيته وملائكته ورُسله، واليوم الآخر، وجنته وناره، وعرض عليه الانتقال معه إلى الجزيرة المجاورة. وانتقلا بإحدى السفن، وكانت العودة إلى المجتمع فشلاً كاملاً لحي بن يقظان، مع أن سلامان، صاحب آسال، كان قد أضحى كبير الجزيرة، لكن أهلها انصرفوا عن ابن يقظان الذي انتهى إلى اليأس وانقطاع الرجاء من الناس ومن أن يفهمه الناس.

وترك ابن طفيل القصة دون نهاية. لعله شاء أن يقول: إن المجتمع قد فَسَد، لكن بعد أن أثبت أن الطريق إلى معرفة ا لله مفتوح لمن يشاء، وقد أدركه لوحده ذلك اليتيم المتوحد. ﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون**﴾.

صدق ا لله العظيم

كافور اليتيم الأسود

« كان من أعاجيب الدنيا، وسيرته من أغرب السير». كذلك قال المؤرخون عن كافور الإخشيدي، الذي حكم مصر والشام اثنتين وعشرين سنة أواسط القرن الثالث الهجري، والذي مازال اسمه يدوي في التاريخ الإسلامي إلى اليوم، ومن ورائه جلاجل المتنبي وطبوله تثير السخرية ضده، والصور الكاريكاتورية لمنظره المضحك.

هذا الرجل كان في نفسه أمام مشكلة مثلثة العقد: كان عبداً من الرقيق، وكان أسود كالليل، وكان، إلى هذا وذاك، قبيح الشكل. فهو مثقوب الشفة السفلى، بصاص، خصي، بطين، ثقيل البدن، قبيح القدمين حتى لتحسبه ذا نعل وإن كان حافياً.

إلى هذه المشكلة المثلثة أضيفت مشكلة رابعة، هي أنه يتيم، وخامسة هي أنه فقير الفقر المدقع.

يبدو أنه اختطف أو بيع في بلاده بالنوبة أو الحبشة، وهو في التاسعة أو دونها، وقدم به النخاسون مصر مع قافلة العبيد وهو في العاشرة، فبيع لتاجر من تجار الزيت، ويظهر أن سيده الزيات كان يسيء معاملته وطعامه، حتى لحقه الجرب، فلم يعد يستطيع الظهور بين الناس، فطرده سيده، فكان يمشي في السوق يشحذ طعامه.

وحدث أن مر بطباخ في السوق فطلب منه بعض الطعام فضربه الطباخ بالمغرفة على يده وهي حارة، فوقع مغشياً عليه من الجوع،

فعطف عليه رجل طيب القلب وداواه حتى شفي، ثم سار بـه إلى سيده الذي عرض على الرجل بعض الأجر جزاء إيوائه وعلاجه، فرفض قـائلاً: إنْ أجري إلا على الله.

كان كافور حين نبه ذكـره مـا ينفـك يذكـر الحـادث، كلمـا عـزت نفسه، وربما سار إلى السوق شـكراً لله قـائلاً في نفسـه: «أذكـر ضـرب المغرفة» وبيع كافور بعد ذلك إلى رجل مـن الكتـاب، وبـدأت الأحـلام تلعب في رأس الفتى الأسود، رغم اليتم والعبودية والقبح والفقر.

ويذكرون أنه في تلك الفترة الأولى، مر بالسوق في مصـر ومعـه عبـد أسود آخر، فقال العبد «أتمنى أن أباع لطباخ حتى أكـون طـول عمـري شبعان» فقال كـافور: وأنـا أتمنـى أن أملـك هـذا البلـد. ويضيفـون: أن كافوراً مر بالسوق بعد أن تأمر فـرأى زميلـه في ثيـاب الطبـاخين، وهـو يحرك القدر، فضحك له وقال: أترى، لقد أدرك كل منا مـا تمنـاه. كمـا يذكرون أن كافوراً مـر ذات يوم علـى منجـم يـرى طالعـه، فقـال لـه: «سوف تصبـح رجـلاً جليـل القـدر وتبلـغ المبلغ العظيـم». فدفـع إليـه كـافور درهمين، فرمى بهما المنجم، وقال: أبشرك مثل هذه البشارة وتعطيني درهمين؟

سأزيدك، إنك ستملك هذا البلد، فاذكرني.

وقيل إن كافوراً، بعد أن بلـغ رتبـة الإمـارة، رأى المنجـم في منامـه، فلما استيقظ سأل عنه، فقيل إنه مات فأحسن إلى بنتيه واشترى لهما داراً وجهزه.

كان قد انتهى المطاف بعبوديته، إن صار بـين عبيـد محمـد بـن طغـج الإخشيد، وكان لا يزال قائداً لدى أمير مصر، أبي المنصور تميـم، اشتراه بثمانية عشر ديناراً.

بدأ كافور مع مشكلاته التي تثبط أقوى الهمم، يلاحق الحلم الذي في نفسه. كان شيء كالسوط القاسي، يلسعه، ليتجاوز بالعمل وبالعمل وحده كل مشكلاته. كان طموحه وراء النجم، وهو في القاع في اسفل القاع، ومع ذلك تحرك العبد اليتيم القبيح، يريد أن يطول النجم وقد طاله فعلاً. بدأ المشوار الطويل بإتقان عمله، وبالإخلاص فيه، وبالاستفادة من تربية البلاط... تعود أن يخدم سيده محمد بن طغج بنفسه، وأن لا تبرح عينه عينه، خيفة أن يسارع غيره لخدمته. ونال العتق أولاً، ثم تدرج في أعمال الجيش مع سيده، في حين كان محمد بن طغج يتنقل في الولايات ما بين الإسكندرية إلى الدلتا، إلى عمان في الشام، وجبل السراة وإلى دمشق.

ووثق السيد بتابعه العتيق، بعد أن رافقه سنين بعد سنين، وتدرب على شؤون الجيش والإدارة على يديه، حتى عهد إليه بتربية ابنيه انوجور وأخيه، وحتى أصبح من كبار القواد وذوي الشأن في الدولة، وحتى عهد إليه بقيادة الجيش في قتاله مع سيف الدولة. وتبع كافور سيده الإخشيدي إلى النهاية، وكان إلى جانبه حين توفي في دمشق، وقضي على الفتنة التي قامت في المدينة يومذاك، وحافظ على قسط كبير من الأموال التي كانت يومئذ في البلاط، فقد كان يحتاط للفتنة بوضع المال في أكياس الأمتعة، وحين حزم الأمر أمر بهذه الأكياس فألقيت في بركة من الماء حتى انقشعت الفتنة.

الإخلاص الذي رفع كافور إلى قيادة الجيش، هو الذي أعانه على أن يبقى في القمة بعد موت سيده.

ابن الإخشيد انوجور لم يكن رجل دولة، في حين كان كافور يهيئ كل الظروف للبقاء على رأس الدولة، حتى لقد انقسم الجيش نفسه طائفتين: الكافورية والإخشيدية، واحتوى كافور الأموال، وحدد

لانوجور مخصصاته وانفرد بتدبير الأمور، وترك لانوجور الاسم والخطبة يوم الجمعة ولقد نوى انوجور الهرب فلم يجرؤ على ذلك، وشاع أمر الوحشة بين الطرفين فكانت حديث الناس، ولكن كافوراً استطاع احتواء الأمر ببراعة الخبير السياسي الداهية، ودون أن يتنازل عن سلطاته غطى عليها وقال المتنبي:

حسم الصلح ما اشتهته الأعادي وأذاعته ألسن الحساد
وأشارت بما أبيت رجال كنت أهدى منهم إلى الإرشاد
فبهذا ومثله سدت يا كافور واقتدت كل صعب القياد

وظل كافور الحاكم المطلق أيام انوجور وأيام أخيه علي من بعده في مصر والشام، وصار اسمه أبا المسك بعد أن كان أبا النتن، وصار اسمه الأستاذ بعد أن كان العبد الخصي، وبعد أن كان مستعبداً صار في بلاطه أربعة آلاف غلام، وفي خزائنه مليون دينار، وفي بلاطه كبار العلماء وفي موكبه يسير القواد والكبار على الأرجل حتى توفي.

يتمه ووضاعة أصله، وسوء شكله انعكست كياسة وفطنة وحسن سياسة ومعرفة بالناس وبأساليب التعامل معهم. أليس من الحق أن يعتبر من أعاجيب الدنيا هذا اليتيم؟

ياقوت الحموي العالم العبد اليتيم

في قصص الأدباء أن أعجمياً انتقد رجلاً من العرب، قال: ما رأيت أقل تدبراً منكم أيها العرب. تسمون أولادكم بفهد ونمر وأسد وكلب وسيف وجحش، ومن كل مفترس كاسر، وتسمون عبيدكم أحب الأسماء وآنسها مثل: زمرد وياقوت ومرجان وياسمين وكافور ألا عدلتم؟

فقال العربي: لقد فاتك الصواب. إنما نسمي أولادنا ليوم كريهة وضراب. فننادي بأسمائهم فيلبون. ونسمي عبيدنا لمجالس الأنس، والنعيم والطرب. ولتلك المجالس ندعوهم بأجمل الأسماء، فيكتمل الأنس. على أنه بالرغم من شيوع اسم ياقوت في العبيد المسلمين، فإن اسم ياقوت إذا ذكر في التاريخ الإسلامي ، فلا يعني رغم وجود يواقيت آخرين، لا يعني إلا شخصاً معيناً بالذات. هو ياقوت الحموي. الذي عاش بين الربع الأخير من القرن السادس الهجري، والربع الأول من القرن السابع. ولا يذكر اسم ياقوت هذا لمجالس الأنس والطرب، وإنما يذكر في حلقات كبار العلماء، واحداً من كبار العلماء، فمن هو ياقوت؟

هو بدوره من الأيتام أو أشباههم فقد كان مملوكاً، والمماليك كثير كثير في التاريخ الإسلامي. وقد وصل عدد كبير منهم أعلى المراتب، وكلهم مذكور في هذا التاريخ على أنه ابن عبد الله. أي أنه مجهول الهوية، فكل البشر عبيد الله. على أن أبا عبد الله ياقوت كان يعرف، فيما يبدو، أمرين أو ثلاثة عن أيامه الأولى. يعرف أن أصله من بلاد

الروم. ويعرف أنه ولد حوالي سنة ٥٧٤ أو سنة ٥٧٥، ويعرف أنه أسر وهو طفل صغير، وبيع في سوق النخاسة ببغداد، فاشتراه رجل تاجر، اسمه عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي، فربى عنده. وهذا الرجل التاجر كان غنياً ولكنه كان أمياً، لا يحسن القراءة ولا الخط، ولا يعلم سوى التجارة. فأراد أن يكون ياقوت يده التي تكتب، فعلمه الكتابة والقراءة ليكتب تجارته.

ونشأ ياقوت، وترعرع، وفي نفسه العقدتان: اليتم، والعبودية. ووجد أنه مادام في ملك التاجر الأمي، فسبيله الوحيد للتميز والتخلص من عقدتيه، هو أن يزداد علماً. فقرأ شيئاً من النحو واللغة والأدب. ولعله عانى الكتابة الفنية تقليداً أيضاً. لكن مولاه ما رآه يشب حتى شغله بالأسفار في متاجره. فكان يتردد إلى كيش وعمان وتلك النواحي في الخليج، ويعود إلى الشام وكان في الحادية والعشرين، حين وقعت بينه وبين مولاه نَبوة، ولا يذكر أحد ما السر فيها. ويبدو أنها كانت تتصل بعمله في التجارة، وبالنسبة التي يختص بها مولاه من الربح. فقد أوجبت هذه النَبوة عتقه، وأبعده سيده عنه. فوجد نفسه حراً، ولكنه في الفقر والمتربة. فعمل نساخاً بالأجرة، لأنه لم يكن له من صنعة أخرى يعيش منها، وليس في الوسع التجارة مع ضيق ذات اليد. وتسمى باسم يعقوب، ولينسى الناس أنه ياقوت العبد. وينسى هو نفسه هذا الاسم الذي يحمل طيف الاسترقاق. ولكنه أخفق في محاولته، إذ لزمه اسمه القديم ولصق به. ولم يعرفه العلماء والناس إلى اليوم إلا على أنه ياقوت. ولكنه من جهة أخرى، عاش من شق قلمه. نجح في أن يعيش بالنسخ، وينتفع من النسخ والمطالعة أحسن الفوائد.

ويبدو أن مولاه عاد بعد مدة ليست بالطويلة، فتراضى معه، وأعطاه شيئاً من المال، وسفّره في الخليج إلى كيش. وبقي ياقوت طويلاً هناك.

ولما عاد، كان مولاه قد توفي. فأعطى زوجته وأولاده ما أرضاهم. وبقيت في يده بقية من مال، جعلها رأس مال له، وسافر بها. لكنه جعل بعض تجارته كتباً، وبدأ العالِم في ياقوت يحل محل التاجر فيه. وكان له شوقان، كلاهما يعاونه على نصر العالِم فيه على التاجر: الرحلة ودكاكين الورّاقين. وقد استطاع أن يجمع حصيلة هذه إلى تلك في سبيل واحدة، وأن يجعل من هذا السبيل معراجه إلى قمة الهرم العلمي وقمة الشهرة.

كانت ثقافته تتسع مع اتساع رحلته في التجارة، واتساع اطلاعه في العلم في وقت معاً. على أن جانب العالم فيه هو الذي كان يزداد على حساب التاجر. كانت التجارة بالنسبة إليه للعيش، وأما المطالعة والعلم، فلحسن العيش وللرغد في العيش. وتقلب ياقوت في بلاد الله، فمن بغداد إلى تبريز، ومن الموصل إلى الشام إلى مصر إلى دمشق. ويبدو أن ياقوت كان عنيف الرأي، قد طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك بذهنه منها طرف قوي. وكان في دمشق أوائل سنة ٦١٣ قاعداً في بعض أسواقها، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فيها، وهرب من دمشق منهزماً إلى حلب، بعد أن بلغت القضية إلى والي البلد، فطلبه فلم يدركه. ووصل إلى حلب خائفاً يترقب. وخرج منها إلى الموصل. ثم انتقل إلى أربيل، وسلك منها إلى خراسان وتحامى دخول بغداد، لأن، المناظر له بدمشق كان بغدادياً.

فلما انتهى إلى خراسان حسب أنه آمن، وأقام بها يتجر في بلادها، وطاب له المقام بنيسابور واشترى جارية تركية أغرم بها كل الغرام. ثم اضطر لبيعها لحاجة عرضت له، فامتنع عليه القرار بعدها. وندم ندامة كبيرة وحاول استردادها ممن اشتراها فأخفق فغادر نيسابور كسير الخاطر إلى هراة، ثم بلخ ثم مرو، فأقام هناك، يتردد على مكتبتها الشهيرة

سنتين، ويقتل هواجسه وعواطفه في الكتب، ثم خرج إلى نسا ومضى إلى خوارزم، وهناك داهمه السيل الأعظم، سيل المغول. كان الفيضان البشري المغولي قد بدأ. وبدأت معه الكوارث الدموية ولعب السيوف بالأشلاء، ومسيل النار على الطرق. جنكيزخان صار رعباً يركض في كل مكان، وانهزم ياقوت مع المنهزمين الهاربين، ولكن كبعثه يوم احشر من رمسه، لا مال ولا نشب ولا متاع. ويوم وصل الموصل في النهاية، كان قد تقطعت به الأسباب، وأعوزه دنئ المآكل، وخشن الثياب. وأقام مدة فيها ينظر جموع الهاربين من المشرق مثله، أمام سنابك المغول. ثم انتقل إلى سنجار، ثم ارتحل إلى حلب، يقيم على الفقر والكفاف في خان بظاهر البلد، حتى وافاه الأجل.

هذا العبد اليتيم، ترك للمكتبة العربية مجموعة كتب ضاع بعضها، وبقي منها بخاصة كتابان، ليس كمثلهما بين المؤلفات العربية قاطبة: معجم للأدباء في ٢٠ مجلداً، ومعجم للبلدان مثله. وقد سلكه المعجمان بين كبار علماء العرب، ضاع ذكر سيده وأمواله وتجارته، وضاع ذكر الملايين من معاصريه. وبقي ذكره. ألم ينتصر العبد اليتيم يا ترى؟

بيبرس اليتيم المؤسس لدول المماليك

قبل نصف قرن كان قراء السير الشعبية، أو المستمعون إلى رواتها في ليل المقاهي الطويل، يعرفون سيرة الملك الظاهر، يروونها كما يروون سيرة الأميرة ذات الهمة، والملك سيف، وتغريبة بني هلال. وكان الملك الظاهر أحد نجوم تلك السير التي تقفز بين الوهم والحقيقة، وتملأ الخيال الشعبي ببطولة السيف والترس، ومغامرات الفرسان والشطار. وقد غاب الملك الظاهر كبطل أسطوري مع مغيب الآخرين في هذه الأيام. لم يعد أحد يتغنى ببطولاته على صوت الرباب، أو خرخرة النرجيلة، ودخان الكدو، وبقي منه ما ضم التاريخ الحقيقي من الأخبار، فمن هو الملك الظاهر؟

هو أحد المماليك، وما أكثرهم في التاريخ الإسلامي. والتاريخ الأول لهؤلاء المماليك ضائع في الضباب. المؤرخون كانوا يهتمون بسليلي الخلفاء والملوك والأمراء، حتى قبل مولدهم، فيحفظون أنسابهم إلى الأجداد الأولين، أما المماليك الذين مروا بأسواق النخاسة، فكلهم ابن عبد الله. إن أول دخولهم التاريخ إنما يكون بعد أن ينبهوا. ومع أن النابه منهم محدود قليل، فإن القول يتضارب في أيامهم الأولى. فما نقع على الصواب إلا تلمساً وتخميناً، إن لم تنسج الأسطورة من حوله الكثير من النسيج. لكنه في كل الأحوال لا يحمل إلا الاسم الذي أسبغه عليه نخاسه. ولا يحمل من اللقب إلا اسم الذي اشتراه. وربما نسب إلى

الذي جلبه، وإلى قيمته التي اشتري بها إن كانت من القيم العالية، كذلك كان الأمر مع المملوك بيبرس بن عبد الله، الذي عرف فيما بعد بالبندقداري، نسبة إلى الأمير علاء الدين البندقدار، وهو بدوره مملوك تقدم في الجيش حتى صار البندقدار، أي حامل أكياس البندق ـ كرات الطين والرصاص التي يستخدمها الأمراء في تصيد الحمام ـ أما الأصل الأول لبيبرس فيبدو أنه تركي من القفجاق.

قضى السنوات العشر الأولى أو أكثر قليلاً في أهله. ثم أغار المغول على تلك الديار، تحسبهم سيول الموت، ونجا الفتى من الموت، لكنه لم ينج من الأسر وبيع حوالي سنة ١٢٤٢ في سيواس بالأناضول، من النخاسين. وتنقل بين تجار الرقيق، حتى وصل مع زميل له إلى حماة. وكانت هذه البضاعة مرغوبة في تلك الفترة من جانب الملوك والأمراء يستكثرون بها على الحرب. فعرض المملوكان على ملكها، فأشارت عليه أمه بشراء أحدهما وحذرته من الآخر الأسمر الأزرق العينين. قالت: إن في عينيه شراً لائحاً. هذا المملوك هو بيبرس. رفضه الملك مع رفيقه، فحمل إلى دمشق وبيع فيها إلى نخاس آخر بثمن ١٠٠ درهم، ثم اكتشف هذا التاجر بياضاً في إحدى عينيه فرده. وأخيراً آل المملوكان إلى علاء الدين البندقدار، الذي صادره الملك الصالح أيوب، وكان من جملة ما صودر من الممتلكات، المملوك بيبرس الذي عرف بالبندقداري.

خلال هذه الفترة تعلم المملوك بيبرس أحكام الدين الإسلامي وآدابه. فضلاً عن الخط والقرآن وفنون الحرب واستخدام النشاب وركوب الخيل وأنواع الفروسية، لكنه في الوقت نفسه تعلم ما هو بالنسبة لطموحاته أهم من كل شيء، تعلم أن بالإمكان أن يتحرر، وأن بالإمكان أن يتقدم في الجيش حتى يصبح أميراً كبيراً، جرح العبودية الغائر في نفسه، وجرح اليتم كانا يغذيان فيه أحلاماً أعرض بكثير من مجرد الفروسية وتعلم فنون

القتال ولقد كان يكفيه انتقاماً لحرمانه من أهله ولعبوديته الأولى، أن يكون الأمير الكبير، وكان السبيل إلى مثل هذه الأحلام مفتوحاً في تلك الفترة أمام المماليك على مصراعيه وفجأة، وجد بيبرس نفسه أقرب من أي وقت مضى إلى تلك الأحلام وهو ينتقل من ملك البندقدار إلى عبودية السلطان الملك الصالح أيوب، صاحب مصر وبعض الشام.

وخلال سنوات كان بيبرس من الحماسة والإخلاص والشجاعة، بحيث أعتقه السلطان، ثم عهد إليه أن يكون مقدم طائفة الجمدارية، وبرز بيبرس مرة أخرى بعد موت السلطان حين كان بين الذين قلبوا الهزيمة إلى نصر عند المنصورة في الحملة الصليبية السابعة سنة ١٢٥٠. ولكنه برز كزعيم عسكري سياسي وتلقب بركن الدين. صار واحداً من رؤوس المماليك الذين عرفوا بالبحرية، لأن ثكناتهم كانت في الجزيرة على النيل، والذين قتلوا آخر الملوك الأيوبيين توران شاه ثم سلطنوا الملكة شجر الدر ثم زوجوها من المملوك أيبك ثم استطالوا على المملوك والسلطانة وعلى الناس، حتى قتل السلطان زعميهم أقطاي ورمى إليهم برأسه وهربوا إلى الشمال وفي مقدمتهم بيبرس.

لم يكن بيبرس على الأرجح يحلم بالسلطنة حتى الآن، ولكن بالاستقرار في القمة بين اللاعبين الأساسيين في السياسة والحكم، فالسلطان للأيوبيين ولهذا كان بين محرضي الزعماء الأيوبيين في الشام على استرداد مصر لعله ولعله، وفي تلك الفترة وصل السيل المغولي إلى بغداد وانهارت الخلافة العباسية أمامه، وخيم شبح هولاكو كالكابوس الرهيب في العراق والشام ومصر، فذكر بيبرس من جديد بعبوديته الأولى على أيدي المغول، فلما نادى أحد الأمراء في دمشق بالاستسلام لسنابك هولاكو صفعه بيبرس على وجهه وسبه وقال « أنتم سبب هلاك

المسلمين». وأرسل ليتصالح مع مماليك مصر وصاحبهم المظفر قطز الذي سلطنوه.

وفيما كان بيبرس يستقبل في القاهرة أحسن الاستقبال كانت طلائع المغول تصل حلب ودمشق وغزة زارعة الدمار والنهب والنار والقتل على جوانب الطرق، وأرسلوا رسلهم إلى مصر تطلب منها الاستسلام.

ورفض المظفر قطز وعلق رؤوس هؤلاء الرسل على أبواب القاهرة، وخرج بالجيش من مصر، وهو بحر من اللهب، فكانت معركة عين جالوت الانقلابية التي أوقفت الزحف المغولي إلى الأبد، وأفرغ فيها بيبرس كل أحقاده على المغول، وانتقم لعبوديته ويتمه وضياعه الطويل. ورأى بيبرس أن ليس بينه وبين حلمه الكبير بأن يكون هو السلطان سوى خطوة.. وخطا هذه الخطوة على طريق العودة إلى القاهرة قتل السلطان، ودخل بموكب النصر بدلاً منه، وفي زحمة الفرح العارم بالنصر على المغول لم يأبه الكثيرون، إلى أن السلطان قد تغير وإلى أنه الآن الملك الظاهر بيبرس، وهتف المماليك للسلطان الملك الظاهر بيبرس.

كيف نسي الناس السلطان المظفر ومقتله؟ وكيف اسبغوا بالمقابل على الملك الظاهر من البطولة ما جعل هذا المملوك اليتيم الأزرق العينين أسطورة من الأساطير الشعبية. بل غفروا جرائمه الأخرى، وظلمه الشديد ومصادارته لأموال الأمراء والرعية؟ لقد غفر الناس له كل شيء، وصوروه بالعكس بصورة الملك الرحيم العادل الحاني، لأنه بشجاعته النادرة أوقف المغول وحلفاءهم من جهة، و طرد الصليبيين من الشام وغزاهم في قبرص من جهة أخرى، ولأنه لأول مرة بعد صلاح الدين وحّد الجبهة الإسلامية وأنقذ الشرق الإسلامي بهذه الوحدة.

وكان بذلك المؤسس الحقيقي لدولة المماليك ومنقذ الإسلام. لم يحاسب الناس بيبرس على شيء ولكن حولوه بالعكس مع العصور إلى أسطورة شعبية.. ألا يستحق ذلك هذا اليتيم؟

اليتيم جنكيز خان إمبراطور العالم

جنكيز خان، هذا الاسم المغولي، شرّق وغرّب وأثار الزوابع من الرعب في العالم كله، أين منه الرعب النووي، قد يكون بالنسبة لقومه المغول بطلاً قومياً مد نفوذهم على العالم فوق بحر من الدماء والنار. ولكنه بالنسبة للشعوب الأخرى، كل الشعوب الأخرى، كان نقمه لله على الأرض. لقد سمع هذا اللقب في عهده وضحك ملء صدره منه. لكن هذا لم يمنع من أن تسري قشعريرة من الرعب في الأجساد عند ذكره أو ذكر قومه. بلغ الرعب بالناس منهم في عهده، أن كان المغولي الفرد يدخل القرية وحده بسيفه، فيأتي برجالها فيأمرهم بوضع أعناقهم فرداً فرداً على الصخر ثم يذبحهم، فلا يجرؤ أحد على أن يقول «لا» في وجهه. وجنكيز ليس باسمه الحقيقي، إنه لقب مغولي أو صيني. وقد يعني سيد العالم وإمبراطوره. أما اسمه الحقيقي فهو «تيموجن»، ويقولون أن والده يسوكاي زعيم بعض القبائل وجد في قبضته حين ولد قطعة متخثرة من الدم، ويبدو أن هذا الدم بقي إلى الأبد في قبضة هذا الطفل، الذي ما إن بلغ التاسعة من العمر حتى فقد أباه، ووجد تيموجن نفسه فجأة يتيماً، وبدأت معاناته المرة مع هذا اليتم.

قرر أعداؤه القبليون التخلص منه، فهاجموا منازل قومه وجاسوا خلال القباب يبحثون، واختبأ تيموجن منهم تسعة أيام، ثم اضطر للخروج بحثاً عن شيء من القوت، فوقع بيد أعدائه أسيراً، وسجن،

واستطاع الهرب، ولما لا حقوه توارى منهم في بعض الأنهر. ثم أعانه بعض العاطفين عليه فاختبأ في عربة تحمل الصوف، وفتشها الملاحقون بغرز رماحهم فيها. وجرحته الرماح في بعض جسمه، وتركت جرحاً عميقاً في ساقه ظل طوال حياته يؤذيه. ولكنه لم يجرؤ حتىعلى الأنين ونجا. عاد إلى أمه ليجد أهله قد تخلوا عن أسرته، وليجد الأسرة لا تكاد تجد ما تسد به الرمق. كانت أمه تقتل الجهد للحصول على الزاد الضروري من ثمار الشجر أو خضار الأرض، ومما يأتي به إخوته الصبية الصغار من الصيد. ونشأ تيموجن على القسوة الرهيبة. تحولت كل مآسي اليتيم فيه إلى نقمة وجبروت. أخذت الوجه المقاتل الهجومي حتى لقد قتل أخاه لأبيه بيكتار في بعض الخصومة على بعض الصيد، ولم يأبه بأمه التي صرخت « أيها القتلة إنكم كالذئاب تأكل بعضها في غمرة العاصفة». ولجأت الأسرة في النهاية إلى جبل قنطاي المقدس تعتصم به، وكانت كل ثروتها تسعة أفراس، عدا المغيرون على ثمانية منها دفعة واحدة. وكان على تيموجن الفتى أن يستنقذها أو تموت الأسرة من الجوع، ونجح.

كانت هذه المغامرة التي نجح فيها تيموجن، بداية النجاحات الأخرى التي حققها، بعضها وراء بعض، وبشجاعته ووفائه لأصدقائه. وشيئاً فشيئاً أعاد علاقته مع القبائل الصديقة لأبيه، ثم ما لبث أن صار بين الزعماء المرهوبين، بعد أن انتصر على مجموعة من القبائل المعادية، وألقى بأسراها في أحواض تغلي بالماء الحار.

كان العطف القوي على الأصدقاء يلتقي في ذاته مع القسوة الوحشية على الأعداء، كأنما هما وجهان لعملة واحدة في صدر هذا اليتيم، الذي سرعان ما نودي به بنتيجة عدد من التحالفات المغولية خانا على المغول. وكان خان المغول يومذاك، مجرد زعيم قبلي في صحراء بعيدة مجهولة هي

صحراء منغولياً، ولكن هذا الزعيم، ما لبث أن خاض المعارك في سبيل التوسع. كانت كتائبه تسيل سيلاً على الوديان الصخرية، وفوق الثلوج، وتنزل كلعنة القدر فتجعل المدن قاعاً صفصفاً، والبشر جيفاً للطير. وأين يتوسع؟ مد ظله الرهيب، أولاً على المغول، جميع المغول، محققاً بذلك أنه خان المغول الأوحد.

وكما كانت الطبيعة قاسية وحشية عليهم في صحرائهم، كانوا قساة، وحشيين على غيرهم وعلى بعضهم بعضاً، كذلك كان جنكيز يعاملهم بالقسوة الجبارة ذاتها. وبدأ اليتيم المغولي يشعر بأنه ينتقم لكل يتمه وقهره ومذلته الأولى ويتجاوزها، وبدأت علاقته بقومه تتحول من الحب إلى الرعب، إلى الرعب العميق. وبهذا الرعب نفسه، وحدهم أمة واحدة، القبائل المتنافرة المعتزة بأرضها الخاصة، وفرديتها الخاصة، ومفاخرها الخاصة، توحدت في ظل راية جنكيز التي يعلوها الشاليش، ذنب الفرس المتدلي خصلة عظيمة تلاعب الريح، وأعلن جنكيز خان بعد ذلك«قانون الياسا» أو «اليسق»، يعني «الممنوع».

لقد حول تقاليد المغول وعاداتهم إلى ما يشبه الشريعة القدسية لهم. ماذا في «اليسق»؟ إنه يكشف أن جنكيز كان من الموحدين، ففي مطلعه يقول: الله واحد، وهو خالق السموات والأرض، مانح الخير والشر، والغنى والفقر، واهب الحياة والموت، يفعل ما يشاء، الله هو القوي،ذو القدرة الشاملة المطلقة.

لكن جنكيز لم يلزم رعاياه بهذه الوحدانية، تركهم أحراراً لوثنيتهم، وكان يجل رجال الدين على أي عقيدة كانوا، لأن الدين لم يكن من همه. الحرب والتوسع والنصر، كانت وحدها هي التي تملأ رأسه، بقية «قانون اليسق» تحوي أوامر اجتماعية منها:

- ليس لأي مغولي أن يتخذ خادماً أو عبداً مغولياً.

- القتال بين المغول محرم.
- من وجد أسيراً أو عبداً آبقا و لم يرده قتل.
- جزاء الزاني أو الزانية الذبح.
- لا تعصب لأي مذهب.
- من بال في الماء قتل.
- ممنوع غسل الثياب بل تلبس حتى تبلى.
- إياك وشرب الخمر أكثر من ثلاثة مرات في الشهر ومن الخير أن لا تشربها أبداً. فمثل السكران كمثل من أصيب بضربة على رأسه، فقد وعيه.
- ليس لأحد أن يأكل وغيره يراه دون أن يشركه في الأكل.
- من وقع عنه متاعه أو قوسه في القتال و لم يترجل لاسترداده قتل.
- ممنوع تفخيم الناس ويخاطب كل امرئ باسمه.

هذا القانون البدائي لم يكن ممكناً أن يصدر قانون أفضل منه، عن رجل ظل حتى الممات بعيداً عن أي ثقافة ولا يتحدث إلا لغة المغول؟ لكنه اعتبر كالمطرقة الضخمة بالنسبة للبشرية.

فقد ساق جيوشه شرقاً إلى منشوريا فاكتسحها، وعبر سور الصين الأعظم إلى شمال الصين فامتلكها، وأقام فيها إمبراطورية ظلت في ذريته، واتجه في الوقت نفسه غرباً، فدمر واجهة العالم الإسلامي من الشرق مع شرقي أوروبا كلها، ثم دمر ابناؤه من بعده ما بقي، ومسحوا على المدن، فهي بعدهم حرائق وأنقاض، وعلى البشر فإذا ملايينهم للتعفن ولبغاث الطير. صحيح أنه بنى امبراطورية لا أكبر ولا أوسع وحول عاصمته قره كوروم في منغوليا من مجموعة بيوت من القصب ضائعة وسط الرمال إلى عاصمة الدنيا، وجلب إليها كنوز الأرض، لكن هذا اليتيم الحاقد، الذي زلزل الأرض، لم يقنع إلا بالبحث عن دواء للخلود، وبعث

إلى الزاهد الصيني شانغ شونغ يستقدمه إليـه، ويطلـب منـه هـذا الـدواء، وفشل في النهاية. قال له الحكيم الصيني: « لا دواء للخلود، وغاية ما في الأمر أن تبحث عن دواء لحفظ الصحة».

ولكن الوقت كان قد فات، كـان في السبعين. ومـات اليتيـم الجبـار سنة ١٢٢٧ إمبراطوراً للعالم، ولكن دون أن يحقق أمله المستحيل.

ديكارت اليتيم أبو الفلسفة الحديثة

لو قلت لفرنسي أن يعد عشرة أسماء تمثل مجد فرنسا الفكري، لعدّ بين الأسماء اسم «ديكارت». ولو طلبت منه خمسة أسماء لعدّ بينها ديكارت، ولو طلبت اسماً واحداً لكان الاسم على الأرجح هو اسم ديكارت. إن الكارتيزية، أي مذهب ديكارت في الفكر، أضحت طابع الثقافة الفرنسية كلها وتؤثر التأثير الواضح في الفكر الحديث كله، فمن هو هذا العملاق الفرنسي؟

ليس ثمة من عملاق. إنه ليس أكثر من رأس أسود الشعر، أسمر اللحية على جسم ضئيل. ولم يولد في فرنسا ولكن في لاهاي بهولندا، ثم عاش ٢٠ سنة من حياته التي امتدت ٥٠ سنة في لاهاي أيضاً، ثم إنه بدوره من الأيتام، لم يكن قد مضى على ميلاده، في أواخر القرن السادس عشر، بضعة أيام حتى ماتت أمه بمرض السل، وتنبأ الأطباء للمولود ديكارت نفسه بالموت العاجل وراءها. وقد ورث اليتيم عن أمه سعالها الجاف، ولونها الشاحب، وجسمها المهزول، وعهد به أبوه، الموظف في الريف في منطقة بواتييه، إلى مربية ريفية تقية، منعته أن يمارس الألعاب مع أطفال القرية، وإن منحته الدلال الممكن، فنشأ دقيق الفكر والحرص مثلها، عزوفاً عن الناس، ولهذا اتهم بأنه ذو عقل نسوي، رقيق نفاذ، منذ صغره، حتى أبوه كان يناديه مازحاً: «يا فيلسوفي الصغير». لقد أدى به اليتم، رغم مظاهر الرفاه حوله، إلى العزلة، وإلى التأمل، وإلى المزيد من الانطواء إلى الداخل. وقد ترفق أساتذته بجسمه

الهزيل، ومرضه في المدرسة اليسوعية التي التحق بها منذ عامه الثامن، فسمحوا له بالصحو المتأخر من النوم، وفي البقاء في الفراش أثناء مذاكرة الطلاب أو لعبهم. ونمت بهذا الشكل عزلته، وتوغله في أعماق ذاته، وملأ ديكارت الفتى فراغ وقته بما يسميه هو أسفاراً ذهنية إلى الماضي، ليتحدث مع أنبل الناس في سالف العصور. كان واضحاً أنه يقرأ التاريخ، ولكن على طريقته في فهمه أفقاً من آفاق المعرفة، ولكنه كان شديد الميل في الوقت نفسه إلى العلوم الفيزيائية والرياضية، وحين يترك مدرسة اليسوعية في السادسة عشرة إلى باريس، كان قد أجتاز محنة مرض السل، التي كانت ترهقه من أمره عسراً. وقد سعد بذلك لدرجة أنه غرق في حياة الشباب الباريسي، من لهو، ويسر، وشراب، وخطر في باله، وهو في الواحدة والعشرين، أن يتطوع أيضاً في الجندية ففعل، وصار ضابطاً لدى أحد الأمراء في هولندا. إلا أن ديكارت كان في الواقع يعاني من نزاع عميق في ذاته. ظن أن الجندية نوع من الرياضة البدنية فاندفع فيها، وطاف في عدد من الأقطار الأوربية كجندي، من هولندا إلى بلغاريا إلى المجر، لكنه تنبه في النهاية إلى أن سعادته بجسمه الذي اكتمل، وبالجندية التي اختار، لن تحقق له الطموح الذي يريد. كان رجل فكر، وكان لا يصدق بينه وبين نفسه أنه رجل حرب. وشيئاً فشيئاً زهد في الجندية قبل أن يمضي فيها السنتين، لأن الشجاعة، كما قالوا، لم تكن من فضائله، فقد نشأ على الجبن والخوف، نتيجة الدلال المسرف الذي عرفه طول أيامه الماضية.

وذات يوم في سنة ١٦١٩ ـ كما قال هو نفسه ـ طاف بي حلم نزل علي من السماء، فقد سمعت قصف الرعد، وكان هو روح الحق الذي يتنزل ليملكني. وترك الجندية واستغنى عن العمل لأنه ورث ما يكفيه للعيش الهنيء، وأخذ يتنقل بين البلاد والكتب عشر سنوات، حتى استقر

به المقام من جديد في هولندا، فاستقر بها ٢٠ سنة. كان يدرس ويقرأ وحيداً هادئاً في عزلة عن العالم، تحسبها عزلة النساك، وإن لم تكن عزلة نسك، فقد كانت له، وهو الذي ظل عازباً طول حياته، قصة مع فتاة وبنت غير شرعية، توفيت صغيرة وأبكته كثيراً، ولقد أخفى حتى عن أصدقائه مكان إقامته، ليعيش لنفسه ولتأملاته. فهو يحدثهم عن طريق البريد، بل أخفى حتى بعض هذه التأملات.

كتابه الأول «العالم» أبعده عنه. أرسل بمسوداته إلى قرية نائية عنه، لئلا يغرى بنشره، ألم نقل أنه كان جباناً؟ صحيح أنه كان من الطموح الفكري، بحيث صار معدوداً بين كبار الفلاسفة، ولكن هذا الطموح عجز عن أن يسلكه في عداد الأحرار. كانت صفة الضعف واليتم ما تزال تنعكس فيه جبناً وحذراً وتردداً. وقد خالف علماء عصره في كثير، دون أن يجابه أحداً منهم. لم يتعرف إلى غاليله وبيغراوند وبرتيه وروبرتو، ولكن لم يستنكف بينه وبين أوراقه أن يصف هؤلاء المخالفين لرأيه بأنهم «تلك الكلاب النابحة الصغيرة التي لا تستحق التفاتاً من أحد»: وكان كلما تقدم به العمر ازداد اعتكافاً في منزله، وازداد خشية من أن يتفاقم الضعف الموروث في صدره، إن وقع له أيسر التغير في الحرارة، لهذا لم يكن يخرج إلا بمعطف أسود، ولفاعة حريرية سوداء، وشعر مستعار، وزوجين من الجوارب.

كان ديكارت بأبحاثه العلمية في الرياضيات والفيزياء يفكر بشكل مادي بحت. أما بحوثه الفكرية الميتافيزيكية فكان بالعكس مثالياً فيها كأعظم المثاليين. ليس هذا هو التناقض الظاهري الوحيد الذي أقام عليه فكره، فثمة تناقض ظاهري آخر قامت عليه فلسفته، فلسفته كلها، هو بناء مذهب فلسفي كامل من اليقين قائم على دعائم من الشك. وليس هذا بلغز ولا ذاك، ولكنه المنهج الذي اختطه ديكارت نفسه في الفكر،

والذي قلب الفكر العالمي من بعده رأساً على عقب، ودمر الطريق الأسكولاستيكية التي تسلم لأرسطو بكل قول، ووضع بتأملاته منهجاً جديداً لقيادة العقل، ومازال يعرف بالكارتيزية، وهو تطبيق للرياضيات في الفلسفة، هذا المنهج الذي شرحه في كتابه «مقال في المنهج وتأملات» يقول: «بكل بساطة للوصول إلى الحقيقة يجب مرة واحدة في الحياة أن نفرغ أنفسنا من كل رأي، وأن نعيد تكوين معارفنا من الأساس بالحدس والاستنتاج». قسّم الصعوبة الكبيرة إلى صعوبة صغيرة وانتصر عليها واحدة واحدة، تنتصر في النهاية عليها. وأبدأ بالشك وفي كل شيء، كلٍ شيء ولكن مهما شككت وشككت، فلا يمكن أن أشك في أن ثمة ذاتاً موجودة تشك، أي تفكر: «أنا أفكر إذن فأنا موجود»، هذه هي الحقيقة الأولى، الصخرة التي يبني عليها ديكارت كل شيء، ثم إن هذا التفكير لابد موجود، إنه المادة التي يجري بها التفكير، فأنا جزءان مميزان: ذات تفكر وآلة يجري فيها التفكير. هذه الثنائية التي جمعت المادية المثالية، أكملها ديكارت بأن قال بكل بساطة «أدرك أن وجودي ليس كاملاً، فمن أين جاءتني فكرة الكمال؟ من قوة أعظم هي الكمال وحده، هي الكمال كله، هذه القوة هي الله، فالله موجود» وهكذا أثبت في النهاية وجود الله.

ومات ديكارت في استوكهولم من نزلة برد، فيما كان يدرس الفلسفة لملكة السويد، التي أصرت على استدعائه. مات ولكن بعد أن صار اليتيم ديكارت أبا الفلسفة الحديثة. بقي أن نقول أمرين: الأول، أن الهندسة التحليلية، أي تطبيق الجبر على الهندسة، التي تعزى إلى ديكارت قد اكتشفت مخطوطة عربية قبل ديكارت بخمسة قرون، تثبت أن العالم الكرجي البغدادي هو الذي ابتكر ذلك. الأمر الثاني، أن في مكتبة

ديكارت في باريس كتاباً عن الإمام الغزالي، على هامشه تعليق بقلم ديكارت نفسه يقول:

«ينقل هذا إلى كتابنا». وهذا الذي ينقل هو منهج ديكارت نفسه، الذي أوصله إلى إثبات وجوده ووجود الطبيعة حوله ووجود الله.

غوركي اليتيم معلم الشعب

هو واحد من عبقريات تلك السهول الشاسعة، المملوءة غابات سوداء، وانهاراً زاحفة بالصقيع، وعواصف ثلجية يرتجف لها الطير. وقرى يأكل البؤس الأسود فيها عيون الأطفال وآخر رمق في العروق. تلك الأرض الروسية التي أنبتت في القرن الماضي، تولستوي وبوشكين، ودوستويفسكي وتورغوينيف وتشكيوف هي التي أنبتت في آخر هذه السلسلة الذهبية مكسيم غوركي، أواخر القرن الماضي، قد يكون أقل من سابقيه موهبة، وقد يكون الهوى السياسي هو الذي جعل منه معلم الشعب، لكنه، في كل الأحوال، أكثر الكتاب انتشاراً في وطنه، وأكثرهم ترجمة إلى اللغات الأخرى، حتى الصغار هناك يعرفونه ويقرؤونه. وقد طبع إنتاجه في ثلاثين مجلداً، ويقولون إنها لا تضم كل ما كتب، والعالم يقرأه بأكثر من ٤٠ لغة في أنحاء الدنيا.

ومكسيم غوركي ليس باسمه، إنه مستعار كبعض أسماء الكتاب الآخرين، اسمه الأصلي «أليكسي بيشكوف» حياته الأولى ملحمة مصائب، تسحق الصخور الصلدة، لكنه خرج منها بنفس مفعمة إنسانية ومحبة، كان في الرابعة حين جرفت الكوليرا، أباه، مدير ميناء استراخان بين من جرفت. وتركته لليتم. وعادت به أمه إلى أهلها في نيغني نوفغورود ليعيش في دار جده لأمه، وكان هذا الجد مثل جده لأبيه قطعة حجر وحشية، وإذا كان جد الأب يطلق الكلاب وراء ابنه ويلحقه بالبندقية، كبعض حيوان الصيد حتى يتدخل الجيران لتخليصه، فإن جد

الأم كان يلحق الصغير أليكسي بالسوط والاحتقار، إنه لم يستطع أن ينسى أن ابنته أم غوركي تزوجت أباه على الرغم منه.

اليتيم الصغير لم يلق الحنان إلا من جدته لأمه. حصيلته في النوازع الإنسانية إنما أخذها عن هذه الجدة الحنون، لأن أمه بدورها تخلت عنه، تزوجت الأرملة الشابة من رجل تافه وكانت الصدمة في صدر الصبي من العنف، بحيث أغلقت نوافذ ذاته كلها. توحد. وأضحى يتيم الأب والأم معاً. كان على استعداد قبل ذلك لفدائها، فقد سرق ذات يوم روبلاً واحداً من جده اشترى به قصة روبنسون كروز، واكتشف الجد سرقة الروبل، فأنهال على ابنته ضرباً وركلاً، فما كان من الصبي إلا أن هجم على جده بسكين المطبخ وجرحه، لولا أن تداركه ا لله، لذلك لم يغفر الطفل لأمه زواجها أبداً. واعتبرها خيانة له ولأبيه.

وانهالت المصائب على أليكسي الفتى بعد ذلك بقليل، فقد جدته، ثم فقد أمه، ثم طرده جده من بيته، ليجد نفسه، صعلوكاً. مشرداً في الأزقة، وهو لا يزال في الحادية عشرة من العمر. حتى المدرسة الابتدائية لم يكن قد أكملها بعد. وعرف أليكسي عضة الجوع المر، وعرف البحث في صناديق القمامة عن فضلات الطعام. وسرق، بلى سرق، ما يقع تحت يده، أما المأوى فأرض ا لله الواسعة لولا المشكلتان الصعبتان، البرد والشرطة. وكثيراً ما تدثر بورق الصحف على الأرصفة، أما إذا طاردته الشرطة فلم يكن يعدم ملاذاً في بعض الزوارق، ولم يكن ليجد عملاً ثابتاً، فالعاطلون كانوا يومذاك بلا عدد، لاسيما بعد أن ألغيت في روسيا ١٨٦١ قنانه الأرض وانطلق الأقنان يبحثون عن عمل في الوقت الذي كانت المصانع الكبيرة فيه تلغي أعمال الحرفيين وتلقيهم إلى الشوارع.

وتنوعت بأليكسي الفتى الأعمال وعرف كل المهن في قاع المجتمع، عمل أجير دهان،ووسائس خيل، وخبازاً، وحفار قبور وحمالا، ودهانا للأيقونات، وحارساً ليلياً، وبستانياً وفي دكان خضار، يقول غوركي فيما بعد «لقد تركت في هذه الحياة أثاراً عميقة جسمية ونفسية، فأصبت بضعف الأعصاب وبالآم الصدر، لكن أهم من ذلك كله فهمت الحياة على حقيقتها». والواقع أنه جمع من هذه الحياة كنوزه من الذكريات التي كانت ترفد خياله القصصي وتفيض غنى على قلمه، ولكنه وهو يحياها معاً كانت جرعات من الموت والدم يشربها الفتى غصة بعد غصة لتنسيه اليتم القديم وقسوة الجد أمام تنين الجوع.

في الخامسة عشرة من العمر، تغلب فيه حب العلم، فهاجر إلى قازان على نهر الفولغا ليدرس في مدارسها، وليلتحق، كما يزعم، بالجامعة. كانت الجامعة حلماً من أحلامه، ولكنه وصل المدينة وليس في جيبه سوى روبل واحد، ولم يجد من مأوى سوى قبو في بيت مهجور، وفشل الحلم بسرعة، لأن الفتى لم يكن يجد قوت يومه. كانت الجامعة الوحيدة التي عرفها هي، بمجموعات المشردين واللصوص والمجرمين، الذين تطاردهم العدالة، وفي مجتمع القاع هذا، اجتمع ببعض طلبة الجامعة، وصار يدعوهم إلى قبوه، ويقرأ معهم الكتب الممنوعة التي يتحدث أصحابها، مثل: ستيورات ميل وروسو وفولتير، عن الحرية والعدالة والمساواة. واثبت هذا القبو كما قال غوركي فيما بعد أنه «أحسن جامعة يمكن أن تعلمني». أعطته هذه القراءات حلاً لشقائه الأبدي. كان يعمل آنذاك ٢٤ ساعة في اليوم في مخبز تحت الأرض، حيث يحيا الرجال كديدان الأرض، فإذا جن الليل أغرقوا آلامهم في كؤوس الفودكا وأحضان الساقطات. أما غوركي، فلم يكن يستسيغ المشروبات الروحية، وليس له في التهتك هوى، بقيت الكتب هي ملاذه وسميره، ألم يكن له أمال؟

بلى وما أعرضها، ولعل المفارقة بين آماله والواقع هي التي انتهت به ذات مرة إلى شراء مسدس قديم أطلق منه رصاصة على نفسه لينتحر، وترك ورقة توصي بتشريح جثته لعل الطب يكتشف أي شيطان يعيش فيها!.

في هذه الفترة، أخذ أليكسي يكتب القصص وينشرها باسم مكسيم غوركي، كان ينتزعها مما عاشه ويصور فيها أنماط البشر الذين يعايشهم في القاع، كان يكتب بحرارة وحيوية لفتت إليه كل الأنظار، لكن ما كان يميزه، أنه كان يعتبر هؤلاء الشذاذ هم الأمل وهم المستقبل، كانت قصصه واقعية سوداء، ولكن فيها أبداً هذه البقعة المنيرة من الأمل، وابتسم له الحظ آخر القرن الماضي بعد طبع مجموعتين من قصصه، فإذا به نجم أدبي مرموق، وإذا صورة هذا المتشرد تملأ الإعلانات، وتزين علب السجائر. غير أن أنظار الشرطة توجهت إليه في الوقت نفسه أيضاً، فاعتقل شهرين ثم أطلق.. واختير عضواً في الأكاديمية لكن القيصر ألغى اختياره، لقد دخل العمل الحزبي، وحين انهزمت روسيا أمام اليابان سنة ١٩٠٥ كان في المظاهرة التي توجهت نحو القصر القيصري. واعتقل وسجن، ثم أطلق ووضع تحت المراقبة حتى استطاع الهرب من روسيا، فلم يعد إليها إلا مع العفو السياسي العام ١٩١٣ اسمه في هذه الأثناء كان قد تجاوز روسيا، لهذا استقبل في الولايات المتحدة بحماسة، لكنه ابغض هذه البلاد ووصفها بأنها صندوق قمامة أوروبا، وبأنها سجن كبير كئيب، وإن الملايين من سكانها ليسوا إلا أدوات عمياء في يد شيطان أصفر اسمه الذهب.

وقد عاد غوركي إلى روسيا واشترك بعد تردد في الثورة البلشفية، لكنه كان في المنفى قد كتب أعظم رواياته «الأم» وأروعها، إنها تروي صلابة امرأة من غمار الشعب في النضال لحق الشعب. وروى غوركي قصة حياته في ثلاثة مجلدات، وبلغ بذلك الأوج لكنه لم يتخل

عن مجتمع القاع، عن مقاهي العمال وحياة البؤس الأسود الـذي يحيـون. على أنه لم ينتـج حتـى مـات سنة **١٩٣٦** أعظـم مـن قصـة «الأم» الـتي ترجمت إلى أكثر من **٤٠** لغـة. هـل تـرى هـذا اليتيـم كـان يسـجل كـل احترامه وحرمانه هذا الرمز الأسمى، الأم في تلك القصة؟

مارك توين اليتيم الساخر

هذا الكاتب الأمريكي الساخر، بل معلم السُّخر، لست تستطيع أن تستبين الفاصل بين جده العميق وسخره العميق، وفيما لا يرى فيه بعض كبار المفكرين إلا كاتباً لا يصلح إلا لبسطاء الناس وطلاب المدارس، وترفض جمعية المكتبات حفظ أعظم كتبه لديها لأنه لا يعالج موضوعاً يبعث على التسامي، نجد أن كتاباً كباراً ونقاداً عالميين يعتبرونه عبقرية فذة، وصاحب مذهب فلسفي، ويغدقون عليه الألقاب ويقيمون التماثيل ليس له فقط، ولكن لأبطال قصصه الذين اخترع أيضاً، بل اطلقت أسماء هؤلاء الأبطال على المسارح والحدائق والمقاهي والدكاكين. وإذا كان غوركي معلم الشعب في نظر روسيا، فإن مارك توين هو عديله الأميركي وابن المآسي مثله، ومشهور في الاتحاد السوفييتي أكثر من شهرة غوركي في أميركا.. الفرق بينهما أن الأول عابس متجهم، يعكس مصائب شعبه كالمرآة الصافية، والثاني ساخر ضاحك يعكس رؤيته لمجتمعه من خلال مرآته المقعرة. فهي كاريكاتور مضحك، مضحك حتى البكاء.

ومارك توين مرة أخرى ليس بالاسم الحقيقي للرجل، الذي حمل منذ ولد حتى شبابه اسم «صموئيل لنغوهورن كليمانص».. كان سادس الابناء الستة لحام تاجر، غامر وفشل في مشاريعه كلها، في قريته الصغيرة بولاية ميسوري، فانتقل بعائلته، وعمر الصغير أربع سنوات، إلى بلدة هانيبال على المسيسبي، ورغم أنها لم تكن تزيد عن ٥٠٠ من السكان،

فقد كانت دنيا ضخمة إذا قيست بقريته. ولم يكد مارك يصل الثانية عشرة، حتى توفي والده، واضطر إلى ترك المدرسة ليعمل منضداً للحروف في مطبعة، يديرها أخوه الأكبر ويصدر بها مجلة عرفت محاولات مارك توين الأولى في الكتابة.

اليتم وضيق العيش لم يعتصرا قلب الصبي لأنه كان ذا طبيعة لا مبالية. وإذا كان القدر قد سخر منه فحرمه أباه، فهو سيقابل ذلك بسخر من مثله، ولكن من كل شيء. عرف الفقر والعيش البائس، وطالما راقب الحياة الخطرة على مياه نهر المسيسبي ورأى على صفحته مناظر القتل، وقوافل العبيد، وأسواق النخاسة، وكوى الميسر والعهر، ولقد تركت هذه المناظر بصماتها كالحديد الساخن على نفسه، وتحت جلده.. وبقيت تلاحقه طول حياته على أنه لم يعالجها كغيره بالمزيد من المعاناة وبالتألم الصوفي الداخلي، ولكن تركها تمر أمام عينيه كالكوابيس العابرة، محاولاً بالمقابل أن يعدلها بمناظر أخرى، بذكريات حفظها عن السفن التجارية على النهر وزوارق الشاطئ وصياديه، وحياة الملاحين الحلوة الذين يستطيعون الغياب وراء الأفق بأحمال الغلال، والدخان وراءهم يتبدد كشعور العذارى.

وكتب مارك توين، ثم كتب، تبدد في الصحف كل ما كتب، ولكنه كان يكبر أمام نفسه. وطموحه كان يزين له أنه كاتب أكبر من الصحف المحلية التي يكتب بها، وأخذته روح المغامرة فراح يتنقل من مدينة إلى أخرى. من سان لويس إلى نيويورك، إلى فيلادلفيا، ولكنه رغم ما كتب كان يأخذ أكثر مما يعطي. كان يختزن التجربة ويراقب النماذج البشرية، أربع سنوات قضاها في ذلك التجوال، قال عنها فيما بعد: عملت في المدن وحضرت اجتماعات المجلس التشريعي دورتين والكونغرس دورة واحدة، فأتاحت لي هذه الفرصة، أن أعرف تمام

المعرفة ثلاثة أصناف من البشر، أما الأول فأصغر من خلق الله عقلاً، والثاني أكثر الناس أنانية، والثالث أكثرهم جبناً.

ورأى مارك أن طريق الصحافة والكتابة مسدودة لم يساعده على البروز الاجتماعي، فتحول إلى التفكير بالثروة، فكر أن يهاجر إلى أميركا اللاتينية، أو إلى مناطق المناجم، يجرب حظه، ولكنه انتهى ملاحاً على السفن التجارية في المسيسبي، كان يتمنى ذلك وهو صبي صغير، وقد ناله. ولم تعجبه هذه الحياة. كل ما كسبه منها اسمه الجديد الذي أخذه من نداء البحارة على مقدار عمق الغاطس، غاطس السفينة بالماء «مارك توين».. وتطوع في الجيش خلال الحرب الأهلية الأمريكية، حرب الانفصال، ولكنه ترك الجيش بعد أسبوعين، لأن التفكير في القتل، على حد قوله، كان يملك علي خناقي ولا يتركني أنام، كيف اقتل؟ وعاد من جديد يحلم بالثروة، كان في أعماقه ما يزال يتيماً بائساً، وسافر إلى جبال نيفادا في الغرب مع اللاهثين وراء الذهب، كانت لمعة هذا المعدن الأصفر تدير الرؤوس في تلك الفترة وتسحب الألوف منهم، وغدا مارك توين فجأة مليونيراً بالفعل، إذ عثر على منجم للفضة.

ثم غدا مفلساً كما كان بعد عشرة أيام فقط، خسر المنجم بالقمار. وعاد الرجل إلى الحضيض الذي كان فيه وإلى الكتابة يرتزق منها، لكن هذا كان نهاية بؤسه، لأنه وجد المنجم الذهبي الحقيقي في ذاته، وفي قلمه. سرعان ما أصبح اسمه مشهوراً يلهج الناس بأدبه الفكه، وهم يتابعون بلهفة ومتعة، مسلسله الذي نشر في جريدة نيويوركية بعنوان «ضفدع مقاطعة كالافيراس الوثابة ذات الشهرة العظيمة» ووجد الثروة من جديد تهبط عليه، فقام برحلة بحرية إلى هونولولو، وبرحلة أخرى إلى الشرق الأوسط وبلدان البحر المتوسط. وعاد ليتزوج ويسكن قصراً، ولينعم بموارد ما انفكت تزداد، وسعادة عائلية غامرة، قال عنها في عيد زواجه الفضي: «الحب لا يعرف صدقه من زيفه إلا بعد ٢٥ سنة».

وفي هذه الفترة اطمأن اليتيم البائس، وكتب أروع إنتاجه «توم سوير»، «الحياة على المسيسبي» «مغامرات هاكليبري فن».. صار يتمه وبؤسه مجرد مناظر من الماضي وطبيعته الظاهرية أخرجتهما من المعاناة، أفرغتهما من المعنى الإنساني الحي ليصبحا صوراً وقصصاً ساخرة. ومع أنه كان ضد أصحاب الملايين وقال: «الخطر كل الخطر أن أصبح واحدا منهم» فقد صار مليونيراً بالفعل، مورده السنوي يومذاك ١٠٠ ألف دولار، ونسي مجتمعه الماضي كله، وانتقل إلى مجتمع المال وأرستقراطية الفكر والسياسة، وحين استقبله الجنرال غرانت رئيس الولايات المتحدة في البيت الأبيض، فأجأه مارك بقوله: « سيدي الرئيس إنني أشعر بالاضطراب أمامك، ألست تشعر أنت بذلك أيضاً؟».

وحسب مارك أنه اطمأن نفساً، ولكن المصائب كانت تنتظره. اشترك في دار نشر أفلست، فأتت على كل ما كان يملك، حتى اضطر للسفر من بلد إلى آخر، يلقي المحاضرات ليسدد ديونه. وتوفيت ابنته، ثم زوجته، ثم ابنته الصغرى، في ضربات قدرية متوالية، كان أقسى ما فيها أنه كان مطلوباً منه، بالرغم منها، أن يظل الكاتب الساخر، وقد كتب معترفاً بالوجه الآخر للحياة: إن السعادة والحب والشهرة ليست إلا قناعاً خفياً لحقيقة الإنسان المستترة خلفه، وهي: الألم والحزن والخزي والفقر. وعاد الحقد والمرارة إلى قلب اليتيم القديم، وعادت معه أطياف التشاؤم إلى نفسه، وحين رأى، قبل موته بقليل، نجماً مذنباً قيل له أنه كان قد ظهر يوم مولده، آمن أنه ميت لا محالة عن قريب، ولقد مات فعلاً.

ويبدو أن كل ما عرفه من المجد والمال والشهرة لم يمح من نفسه المرارة القديمة.. القديمة. قال قبل موته: «إني لأموت وقلبي يطفح حقداً وكراهية لكل ما في الوجود».. وكان هذا أبلغ سخرية يسخرها القدر من هذا الساخر الكبير معلم السخر.

أوهيكينز اليتيم المحرر

في معارفنا العامة لا مكان لهذا الاسم. إنه غريب غريب، لم يسمع به أحد.. ولكن انتقل إلى الطرف الثاني البعيد من الأرض، إلى شيلي، واسأل عنه، لتسمع العجب المثير. إنه هناك بطل قومي، له التماثيل والأناشيد والصور في الكتب المدرسية، وهو هناك الثائر الأول، والمحرر الأول، والرئيس الشيلاني الأول أيضاً، شيلي التي تمتد على شريط ساحلي، بين جبال الأند الثلجية ذات العواصف والمحيط الهادي، أوسع محيطات الدنيا، على ٤٥٠٠ كيلومتر من الطول، و ٣٢٠ كيلومتراً من العرض، وقد تضيق أيضاً حتى لا تزيد على ٦٤ كيلومتراً.. شيلي هذه، برناردو أو هيكينز هو ثائرها ومحررها ورئيسها. قبل حوالي ٢٠٠سنة، كانت هذه الأرض لا تزال الغابة المتشابكة، والبحيرات ذات الصقيع، وعواصف المطر والأدغال تصفر خلالها الريح الآتية من لا نهائية المحيط، وأزهار الثلج تهتز في الأرض الريا بالماء، والسكون يلف الكون، رغم القرى المبعثرة بين السفوح والشواطئ.

في هذا البلد في بلدة شيان في الجنوب سنة ١٧٧٨، وكانت شيلي يومذاك مستعمرة أسبانية، ولد برناردو اوهيكينز. في أوراق عماده لم يذكر اسم أبيه، «امبروزيو» الضابط الإسباني ذي الأصل الايرلندي، الذي صار فيما بعد حاكم شيلي، ثم نائب الملك الإسباني في البيرو، ذلك أنه كان الابن غير الشرعي له، وأمه سجلته في الكنيسة على اسمها.

ونشأ الولد على اليتم. لا يتصل به أبوه إلا من بعيد، وبشكل غير مباشر حتى مات. أما أمه فماتت، وهو لا يزال في الثامنة من العمر، فنشأ وحيداً بين أهلها يتيماً، يتيماً.

لم يكن في برناردو من شيء غير عادي لولا يتمه، وقد أرسل إلى البيرو للدراسة الثانوية في الثانية عشرة. وبعد خمس سنوات أرسل إلى إنكلترا، وهناك قام بالاتصال مع بعض النشاطات السياسية، ومع بعض الزعماء الوطنيين أمثال: فرانسيسكو ميراندا الفنزويلاني، بطل الاستقلال في أميركا اللاتينية، الذي أثر كل التأثير فيه. تحددت بعد ذلك مسيرة الحياة كلها بالنسبة لهذا اليتيم. كبرت شيلي في ذاته حتى أضحت وطناً خاصاً، وأضحت إسبانيا البلد المحتل الطاغية. واختلط البحث عن الهوية الشخصية لديه مع البحث عن هوية قومية. توحدت الهويتان، صارتا شيئاً واحداً. قد يكون حقده على أبيه هو الذي تضخم، وعبر عن ذاته في الحقد على إسبانيا. من يدري؟ لكن اليتيم وجد أخيراً هويته، وسيعمل لاستردادها، لا كما استرد اسم أبيه بالموت، ولكن بالنضال ضد إسبانيا، وقتل وجودها في شيلي.

وقدر اوهيكينز أنه قد يكون من أسباب القوة له أن يدخل الماسونية، لعلها بصلاتها العالمية تساعده. والماسونية يومذاك موضة العصر الإدارة الخفية وراء الشعارات الأوروبية البراقة، من حرية ومساواة وعدالة. ودخل مع بعض الزعماء الثوريين المقبلين المحفل الماسوني الذي أسسه معلمه ميراندا. وقد كرس هؤلاء الأعضاء أنفسهم لاستقلال أميركا اللاتينية. وترك اوهيكينز إنكلترا إلى إسبانيا، وهو في الواحدة والعشرين. واتصل بالأوساط المثقفة التي كانت بدورها تقاسمه وجهات نظره إلى حد كبير. وكان وضعه العام حسناً حتى مات أبوه الذي أضحى نائب الملك في البيرو، تاركاً له مزرعة واسعة في مدينته الأولى شيان، وأن

يحمل اسمه. وعاد برناردو إلى بلده يتعهد المزرعة، التي سرعان ما أعطته المردود المجزي، وكانت هذه الفترة التي امتدت حوالي عشر سنوات أسعد أيام حياته. بنى بيتاً وصار عضو المجلس المحلي في شيان.

في تلك الآونة أصيبت إسبانيا نفسها بضربة قاضية في أراضيها الأصلية ذاتها، احتلتها سنة ١٨٠٩ جيوش نابليون، وأزالت ملكها وملكيتها، فتفككت مستعمراتها في أميركا اللاتينية خاصة، كانت كالأخطبوط الذي ضُرب رأسه ضربة قاتلة، فانحلت أطرافها الماصّة بكل مكان. تركت المستعمرات لمصائرها.

وكان على المجموعات الوطنية انتهاز الفرصة، واتخاذ الخطوة الأولى للاستقلال. وتألفت سنة ١٨١٠ لجنة من الزعماء المحليين حلت محل الحاكم الإسباني العام في سانيتاغو العاصمة، وصار لشيلي في السنة التالية مجلسها النيابي، وكان اوهيكينز عضواً فيه، وسرعان ما لعب في السنتين التاليتين أدواراً أساسية في التحركات السياسية، وفي وضع الدستور، وفي السيطرة على الحرب الأهلية التي التهبت في البلاد. وكان نائب الملك في البيرو يشرف على إعداد حملة تعيد النفوذ الملكي الإسباني إلى شيلي، حين برز من صفوف الميليشيا ومن بين قوادها اوهيكنز. وصار خلال أشهر معدودة القائد العام لقوات الدفاع، وعين في الوقت نفسه حاكماً لمقاطعة كونسيبسيون التي أبتدأ فيها القتال. آن الأوان ليثبت اليتيم المنكور هويته الخاصة من خلال إثبات هوية قومه الذين لم تكن لهم من هوية خاصة من قبل. ولكن أوهيكينز هُزم، واستبدل به قائد آخر. وفي أكتوبر سنة ١٨١٤، في رنكاكوا، خسر الوطنيون الشيلانيون المعركة نهائياً. واحتلت القوة البيروانية الإسبانية شيلي!!

أين اوهيكينز في هذا المعترك؟ هرب مع بضعة آلاف من الشيلانيين عبر جبال الأند إلى الأرجنتين لاهثين، هربوا، وعرفوا الجوع في الهرب

الطويل، وزمهرير القمم، وزفير الموت في الوديان الموحشة، وهول التيه في الغابات، لكنهم كانوا مصممين على العودة، قضوا ثلاث سنوات. ثم عادوا، ولكن بجيش مجهز ومعهم «سان مارتين» محرر الأرجنتين نفسه، واستطاعوا في معركة «شاكابوكو» في فبراير سنة ١٨١٧، أن يهزموا الإسبان هزيمة حاسمة، وأن يحرروا معظم الأراضي الشيلانية. وانتخب اوهيكينز مديراً أعلى للبلاد. وقضى في قيادة شيلي ست سنوات نجح فيها النجاح الإداري الباهر. أنشأ جهاز الدولة ووضع الشعار للأمة الناشئة الجديدة «السلم والنظام». ورغم عدد من الظروف المعاكسة استطاع إنشاء سلاح بحري، وأن يرسل حملة عسكرية ضد البيرو خرب الملكيين. لكن اوهيكينز لم يكن ذلك الماكر الداهية في السياسة. فما أسرع ما اصطدم بالكنيسة المحافظة وبالأرستقراطية التي ما زالت لها قواعدها القوية في البلاد، بسبب إصلاحاته وآرائه. لم ينتبه بشأن إيجاد قاعدة سياسية صلبة بجانبه. غرته سمعته كقائد حربي في فترة صار السلم بها هو أساس الحياة. وهكذا ما كاد شبح الحرب يغيب حتى كان سقوطه مؤكداً..

وسقط رغم نزاهته وإخلاصه وما قدم. وعاش أوهيكينز منذ سنة ١٨٢٣ حتى وفاته ١٨٤٢ في المنفى، في البيرو. ولم يتزوج لأنه تزوج قضية بلاده،وإن كان له على طريقة أبيه ابن رافقه في منفاه. وكان يعجب بالنظام السياسي الإنكليزي، ولكنه أبداً لم يكن ديمقراطياً.

ورغم اختلاف وجهات النظر فيه فلا يجادل أحد في أنه أوجد شيلي الحديثة، وكانت سنواته الأخيرة كسنواته الأولى. لقد أجبرته الظروف في طفولته على العيش يتيماً بعيداً عن البيت، وأجبرته الظروف في كهولته الأخيرة على أن يعيش بعيداً عن الوطن الذي أنشأه وأعطاه عمره،

وكان هذا اليتيم المحروم في الحالين يخطط للعـودة إلى بيتـه ليسـترد هويتـه ولكن دون طائل... ومات يتيم بلده الأم!

دوستويفسكي اليتيم ذو الأرزاء

إذا شئت الحديث عن دوستويفسكي فحذار. أن كل كوابيس الأرض تأتي مع هذا اليتيم العبقري ذي الوجنات الترابية الغائرة، والبشرة المخددة المظلمة، واللحية المشعثة كالدغل، ولكنه كان، في الوقت نفسه، أحد الذين بنوا للإنسان عوالم أخرى، وكان مجد الفكر وانتصاره على الحزن الأرضي.

كذلك وصفوا هذا اليتيم، لقد حلقت به الحياة عالياً ثلاث مرات، وهبطت به من حالق ثلاث مرات أيضاً. وبين صعود وهبوط كان مصيره كمصير أيوب يتقاذفه المد والجزر. فما يكاد يعلو، ويحسب أن الحياة قد صفت له وأنه آمن، حتى يأتي القدر كاليد الجبارة، فيرده إلى الأجمة، ويقذف به في خضم الأشواك المشتعلة، وهو مستسلم للمصير كالجسد الجريح، لا يرفع صوته حتى بالشكوى.

لقد كانت حياته نفسها أروع قصصه، وأفجع مآسيه.

في ملجأ للفقراء يولد ميخائيلوفتش دوستويفسكي. وإذا كان أبوه،وهو طبيب عسكري من أصل نبيل قد تخلى عن أمه، ذات الأصل الفلاحي، ففي ملجأ للفقراء بموسكو في كوخ ضيق أنفق السنوات الأولى من حياته، ولست تجرؤ على أن تقول طفولته، لأنه لم يعرف معنى الطفولة. فقره لم يتحدث عنه بعد أن فات أبداً، صمت عنه خجلاً أو خوفاً أو كبراً عن أن يرثى له، ولكننا نلمح خيال تلك الطفولة في

الأطفال الذين صورهم في قصصه، ونرى أنه كان مفعماً بالخيال حتى الهلوسة، مترعاً بالشوق الجبار إلى أن يصبح شيئاً عظيماً، إلى أن يتجاوز قدره، ذا الجرح المزدوج: اليتم والفقر.

حين وصل فيدور سن اليافعين وعى أن مكانه في الحياة محدد في القاع، في الحضيض، مع المهملين، فداوى نقمته وقهره وفقره بالقراءة والعزلة، التهم التهاماً. الكتب والروايات، لعله كان يبحث عن السبب في سوء قدره، وانطوى على ذاته، اختبأ وراء قشرتها الصلبة كالقوقعة، ووجد نفسه يشب دون موعد. وتزداد حاجاته وديونه فيتطوع في الجيش لعله ولعل. ولكنه هناك أيضاً لا يجد الصديق ولا المورد الكافي فيزداد انكفاء وانطواء، ويحاول في نوع من الحيرة أن يتصيد بعض المال في الترجمة، لعله يصلح ميزانيته المتدهورة، في التهتك وصيد الصداقات، فيترجم الروائي الفرنسي بلزاك، والشاعر الإنكليزي شيلر، وعبثاً ما حاول. وأخيراً يجب أن يكتب رواية، فيكتب «أناس بؤساء». كان يوم ذاك في الرابعة والعشرين، قد أذله الفقر وأمسكه عن أن ينسحق تحت طاحونته، نوع من الاستسلام لله أشبه بالصوفية، ويمضي بعد تردد وتهيؤ إلى «نيكراسوف» الأديب المعروف يسأله أن ينظر في المخطوط، وبعد يومين من الترقب، يدق جرس بيته في آخر الليل فإذا به أمام «نيكراسوف» الذي يعانقه والدموع في عينيه ويهتف باسمه: رائع يافيدرو، رائع!

بعد يومين آخرين كان اكبر ناقد أدبي في روسيا بيلينسكي ينضم إلى المعجب الأول ويسأل دوستويفسكي: ترى هل تدرك أنت نفسك ما أبدعت هنا ؟ وحين خرج دوستويفسكي من عنده كان نوع الدوار يرقص الدنيا حوله، وكان يترنح فرحاً كالمخمور في الشارع، ودموعه على عرض خديه، لم يكن يدري أنه رسم لنفسه بهذه الخطوة الأدبية،

الدائرة التي لن يبرحها أبداً، دائرة الكتابة لكسب المال، لقد وجد أخيراً الطريق ليعيش ويسدد ديونه، باع نفسه للقلم، وبدأ الركض على الطريق الطويل، الذي تتسابق فيه موارده مع ديونه، دون أن تلحق بها أبداً.

كان احتقاره للمال مقدار حاجته إليه، وكان إتلافه له في الصداقة والميسر والتهتك، يجعله عبداً للروبل الذي يحتاجه، وكان يرهن إنتاجه، قبل كتابة سطر واحد منه، في سبيل هذه الحاجة التي تفغر أشداقها كالتنين وراءه، ولكن دوستويفسكي راض بهذا القدر وكان على استعداد للمضي معه، حين دق جرس الليل فجأة عنده مرة أخرى. لم يكن الزائر أديباً، أو ناقداً أديباً هذه المرة، ولكنهم كانوا رجال الشرطة، اقتحموا حجرته وختموا أوراقه بالشمع الأحمر وساقوا الرجل بالحديد. بعد أربعة اشهر من الاعتقال في الزنزانة، ودون أن يسأله أحد شيئاً، صدر الحكم عليه بالإعدام، قالوا إنه مشترك في مؤامرة ضد الحكومة، وقد سيق مع تسعة آخرين إلى ساحة الإعدام وعصبت عيناه، وقرئ الحكم، وقرعت الطبول إيذاناً بالتنفيذ، وإذا بالضابط يلوح بالمنديل الأبيض ويقرأ أمر القيصر بتخفيف الحكم إلى النفي في سيبيريا.

وهوى دوستويفسكي مرة واحدة إلى القاع، قضى أربع سنوات في صحراء سيبريا الثلجية، في معسكر اعتقال ضربت حوله الأسلاك الشائكة على ١٥٠٠ عمود من البلوط، كانت هي افقه الأبعد، رفاقه هم المجرمون اللصوص. عمله هو جرف الثلج وصقل الرخام، صديقاه كلب أجرب ونسر مشلول. كان هذا هو «بيت الموتى» الذي صوره دوستويفسكي.

وأطلق من معتقله ليقضي أعواماً أخرى منفياً في تيه الثلج السيبيري لا يسمح له بنشر كلمة، وحين عاد إلى بطرسبورغ (لينينغراد اليوم) عاد منسياً لا سمعة ولا أصدقاء.. ولا مال أيضاً، ولكنه سرعان ما استرد كل

شيء بذكريات بيت الموتى نفسها، فإذا روسيا كلها تكتشف، وهي مذعورة، ذلك الجحيم المنسي وراء الثلوج،وإذا بالقيصر نفسه يبكي فوق الكتاب. وتعود السعادة لتظل على الرجل ويشتهر مرة أخرى، ويصدر مجلة يكاد يحررها وحده، ويبدو كما لو كان قدره قد هادنه إلى الأبد.. لكن ذلك كان كالبرق الخلب، فالفواجع كانت تنتظره: تموت زوجته التي تزوج في المنفى. ثم يموت أخوه الذي كان معينه الوحيد، وتتراكم وراءه الديون بعد الديون، ويكتب ثم يكتب ويكتب للحصول على المال، والمال يزوغ منه ولم يجد في النهاية مفراً من الهرب ولكن إلى أين؟ إلى خارج روسيا.

نفى نفسه واسلمها للتشرد وعرفته الشوارع القذرة. في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا، طيفاً متسكعاً بين الحانات الرخيصة، وموائد الميسر، والغرف الناضجة بالعفن، بينما كانت الديون والصكوك تطارده كما تطارد كلاب الصيد الأرانب الوحشية، وقد يدخل المقهى ليستطيع قراءة صحيفة روسية، أو يجلس في المتاحف، لا للفن ولكن لشيء من الدفء. يخرج من المصارف مخذولاً على الدوام لأن الحوالة التي طلبها من روسيا لم تصل، وفي هذه الفترة يلح عليه داء الصرع، هذا المرض الشيطاني الذي رافقه ثلاثين سنة، فكانت النوبات تأتيه في كل مكان ويلملمه المارة حتى يصحو.

ويعود مترنحاً إلى البيت ليفرغ كل شحنة آلامه في الكتابة، الكتابة التي كانت عذابه ومتعته الكبرى في وقت معاً، وفيما كان دوستويفسكي في القاع، كان اسمه يلمع في روسيا كالنجم، ويصبح الأديب الأول بعد أن نشرت روايته «الأخوة كارامازوف». وجاءه الفرج حين دعي للاشتراك في العيد الثمانين لشاعر روسيا «بوشكين». وهناك حقق انتصاره الرائع. كلمته هزت قاعة الاحتفال، حياه الناس واقفين بالتصفيق

الحاد طويلاً، قبلت النساء يديه، تنازل الخطباء بعده عن كلماتهم. على أن الأشواك التي كانت تكلل رأسه، بدأ الاشتعال فيها واصبح لهباً، ولكن ليعلن نهاية حياته، ولتصاب روسيا كلها بالهزة لهذه الوفاة، وهي تسعى في وفود سوداء لا تنقطع تحييه بالنظرة الأخيرة. وخرج جثمانه والطلاب يحملون خلف تابوته أغلاله يوم كان سجيناً.

ترى هل الموت أسرع إلى دوستويفسكي لئلا يشهد انهياراً آخر من القمة التي تسلقها بدمه وأعصابه هذا اليتيم الصابر؟

أوديب واليتم

يبدو أن ارتباط اليتم بالعبقرية، أو بالبطولة، أو بالأعمال الخارقة، أمر يتغلغل في أعماق التصورات الشعبية القديمة. وله جذوره البعيدة البعيدة، حتى في النسيج الأولي أيضاً لقصص الأبطال الأسطوريين، أو الملوك الأولين في أقدم العصور. هذه الظاهرة تلفت النظر بالرغم عنا.وما الذي يجعل اليتم مركز جذب لقصص البطولة الخارقة؟ سؤال تصعب الإجابة عنه بجزم. فهل في ذلك ما يمنع من الطواف حوله ببعض القصص الموضحة؟

قد تكون أسطورة أوديب الإغريقية، أسطورة نموذجية في هذا الباب. أو على الأقل هكذا اعتبرتها الأنانية الغربية، التي تريد أن تحتكر كل شيء. لكننا نجد العناصر الأساسية، لبطل هذه الأسطورة في كل الأساطير الأخرى. من راما الهندي إلى رستم الفارسي إلى جلجامش فيما بين النهرين إلى قصص مصر الفرعونية. فالبطل دوماً من أصل نبيل، ويكرهه أبوه لسبب من الأسباب، فيتخلص منه بعد ولادته لينشأ الطفل يتيماً في مكان ناء. ثم يعود، ليسترد هويته، محققاً البطولة ومع البطولة الشهرة والمجد.

وهكذا كانت قصة أوديب، الذي حشيت أسطورته في أذهاننا، وفي النخاع الشوكي من الأدب العالمي. بثلاث مسرحيات باقية من أيام كاتبها سوفوكلس قبل ٢٥ قرناً. والقصة معروفة، فبطل بلدة طيبة هذا في

اليونان، هو ابن ملكها لايوس. وقد تنبأت العرافة لدى الملك بأنه سيرزق ولداً يقتله، ويتزوج أمه ويجلب البلاء للمملكة. فتشاءم الأب الملك، وقرر قتل الطفل الذي تحمل به زوجته شوكرز. ولُف الطفل في خرق الولادة، وأرسل إلى البرية مع الراعي ليُقتل. فعلقه الراعي من رجله على بعض الشجيرات، على الحدود البعيدة لتلتهمه الذئاب. وعثر به أحد الرعاة فراق له، وحمله إلى الملك المجاور الذي رباه في قصره. حتى إذا استوى عوده، عرف أنه لقيط، فأنف من المقام في البلد، وتسلل ذات صباح منها، ضائعاً وراء التلال والوديان في الغابات البعيدة. وذات يوم، فيما كان يبحث عن طعامه، وقع على معسكر لجماعة، لا يدري أهم صيادون أم بضعة من التجار أم قطاع طريق. وأراد أن يسطو على بعض طعامهم، فتنبه له واحد منهم فصارعه أوديب وقتله. وانسل هارباً حتى وصل طيبة. وهناك عرف أن ملك المدينة قتل وبكاه أوديب مع الباكين. لم يعلم أن الذي قتله في الغابة هو الملك. كما لم يعلم أن القتيل نفسه هو أبوه. وتحققت النبوءة الفاجعة الأولى في قدر أوديب الأسود.

بعد فترة شاع في المدينة الذعر والحيرة.. قالوا أن تنيناً رهيباً يقطع الطريق على المارة إلى طيبة. يسألهم حل لغز يطرحه عليهم. فمن لم يعرف رماه في البحر. كل الناس يتحدثون عن اللغز ويرددونه: ما الحيوان الذي يمشي صباحاً على أربع، وظهراً على اثنين، ومساء على ثلاث؟ وذهب الكثيرون ضحية اللغز. وأعلنت الملكة أنها على استعداد للزواج من أي شخص يعرف حل اللغز، ويخلص شعب طيبة من الحصار والفناء.

وذهب أوديب، وحين ظهر التنين له، وطرح السؤال، أجاب بكل بساطة أنه الإنسان.. يولد فيدب على أربع، ثم يصبح بشراً سوياً على ساقين. حتى إذا أدركه العجز كانت العصا هي الثالثة.. ودهش الناس،

حين علموا، أن التنين وفى بالعهد الذي قطعه على نفسه، فقد كان أعلن أنه سيلقي بنفسه في اليم، إن كشف أحد لغزه المعجز، كما وفت الملكة بما أعلنته.. فاحتفلت بزواجها من أوديب الشقي، الذي لم يعلم أنه إنما يتزوج أمه.

وتمت النبوءة الفاجعة الثانية في أقدار أوديب السوداء. ورزق الشقي أربع بنات من زواجه. لكن طيبة، عرفت ألوان المصائب في عهده.. افترسها القحط، واكتسحتها الأوبئة، ودبت فيها المجاعة، وتوالت عليها نكبات الفيضان والعواصف الصاعقة، حتى التجأ الناس إلى المعابد يتضرعون لكشف الضر ودفع البلاء. واستطلع أوديب الكهنة والعرافين كيف يسترضي الأرباب؟ وعند ذلك انكشف له سره الدفين.. قالوا له أنه أوديب. وعرف منهم أنه قتل أباه، وأنه تزوج أمه، وتسبب في المصائب لقومه. إنها اللعنة الإلهية.

وزلزلت المصيبة الرجل. فعمد إلى سيخين محميين من الحديد ففقأ بهما عينيه. وخرج من المدينة هارباً تقوده ابنته الصغرى. ويقولون أن الأرباب وعدته فقط أن تبارك الأرض التي يدفن بها جثمانه. كما يقولون أنه حين لفظ النفس الأخير في بلدة كولونا قرب اثينا، كان يقول حائراً لماذا شقيت؟

أسطورة أوديب حكاية أو كالحكاية. نسجت حول سيرة يتيم تحول إلى بطل وتحولت سيرته إلى فاجعة. لكن في أعماق هذه السيرة، يقبع التساؤل الأبدي الذي تطرحه جميع الديانات.. هل يستطيع إنسان الهرب من أقدار الله؟ وتجيب عنه بالنفي، ﴿ **والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾.

صدق الله العظيم

هوشي منه يتيم وبطل أمّة

هوشي منه، هل تذكرون هذا الاسم؟ إنه لم يغب منذ عهد طويل عن واجهة الصحف العالمية، منذ سنة ١٩٢٤ تقريباً وحتى سنة ١٩٦٩، ظل يحتل بين فترة وأخرى تلك الواجهة، ويصبح حديث الناس. هذا الرجل قاتل ثلاث قوى كبرى، من أعتى القوى الاستعمارية الشرسة التي عرفها العالم الحديث، وانتصر عليها، حرر بلاده منها:

اليابان في الحرب العالمية الثانية، وفرنسا قديمة الاحتلال لبلاده، والولايات المتحدة آخر الغزاة المهزومين. هوشي منه هو زعيم الفيتنام حوالي ٣٠ سنة، وكان رئيس الفيتنام الشمالية من ١٩٤٥ حتى وفاته سنة ١٩٦٩، حتى أعداؤه يعترفون بأنه أبرز أبطال الحركات التي قضت على الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، ومن أبرز رجال القرن العشرين أثراً وشأناً.

وهو شي منه ليس باسمه إنه لقب. هو ابن مدرس قروي اسمه «نغووين سين هويه»، ولد في قرية في ضواحي هوانغ، إحدى مقاطعات فيتنام الشمالية، وسمي «هو».

كان ذلك سنة ١٨٩٠، يوم كانت تلك البلاد مستعمرة لفرنسا وتسمى بالهند الصينية. وفقد هذا الطفل أمه وهو في العاشرة، بعد أن كان أبوه هجرهما قبل ذلك، فحرم «هو» الاثنين، وزادت بذلك طفولته البائسة بؤساً ومذلة. ومع ذلك، استطاع الفتى، وهو في الرابعة عشرة، أن يلتحق بمدرسة لدراسة القواعد في «هوه» ثم قبل معلماً في

بلدة فان تييت. ثم التحق بمعهد تقني في سايغون، وكان في الواحدة والعشرين من العمر، حين قبل تحت اسم «با» طاهياً في باخرة فرنسية. وعلى ظهر هذه الباخرة وعلى مدى ثلاث سنوات زار الموانئ العديدة من إفريقيا وأوروبا إلى بوسطن إلى الشرق الأقصى، وترك دنيا البحر مع احتدام الحرب العالمية الأولى. فقضى سنتين في لندن لينتقل بعدها إلى فرنسا سنة ١٩١٧ والحرب لا تزال في أوجها، لكن بعد أن قرأ الكثير واكتملت ثقافته السياسية الثورية. الطفل اليتيم الذليل كان قد نضج، وشيئاً فشيئاً كان قد ألبس مشكلته الخاصة بمشكلة بلاده، وأذابها فيها حتى حلت قضية بلاده في ذاته محل قضيته الخاصة أو توحدتا وأصبحتا مشكلة واحدة. وكلاهما كان يتيما دون أب حان قائد، وكلاهما كان مستغلاً محتلاً، وفيما اتسعت قضية الشاب لتصبح قضية البلاد كلها، تضاءلت قضيته الذاتية حتى لم تعد سوى ذرة في القضية الكبرى.

ولم يتزوج أبداً لأنه تزوج القضية. وتمرس خلال السنوات الست التي قضاها في فرنسا، بالنضال السياسي. اختار الاشتراكية وتسمى باسم «هو» الوطني «انجوين أي كوك» وكانت بادرته النضالية الأولى أنه تقدم إلى مؤتمر الصلح المنعقد سنة ١٩١٩ في باريس لتصفية الحرب العالمية الأولى بمذكرة تطالب بمنح المواطنين في الهند الصينية الحقوق نفسها الممنوحة للمستعمرين الفرنسيين هناك. كانت هذه أول معركة. لم تحظ المذكرة طبعاً بالتفات، ولم تحظ بجواب من مهندسي ما بعد الحرب. كانوا مشغولين عنها بتقاسم الغنائم. لكنه تابع نضاله متأثراً بموقف الثورة البلشفية الروسية من الاستعمار ونضالها ضده. وأخذ يهاجم في جريدة أنشأها في باريس اسماها لا «باريا» أي خارج الطبقات: شياطين الاستعماريين: الإنكليزي والفرنسي. وذهب إلى موسكو لدى موت لينين، اشترك في مؤتمر الحركة الدولية الأولى

«الكومنتيرن». وانتقد الحزب الشيوعي الفرنسي على تخاذله في دعم حركة التحرر في المستعمرات، وخرج برأي حول أهمية الدور الثوري للفلاحين، جعله من أقطاب الفكر السياسي، في أواخر سنة ١٩٢٤ وتحت اسم «لي ثوي» ذهب إلى كانتون في الصين، وأسس الخلقات الأولى للحركة الفيتنامية الوطنية، التي عرفت باسم «تان نيين» وهي الحركة الثورية التي ضمت الهاربين الفيتناميين من الاستعمار الفرنسي لأسباب سياسية، كان الهدف أن يسهموا في القتال ضده. وصارت كانتون لذلك مهد الحركة، حتى طردها شان كاي شيك منها. وتنقل (هو) بين موسكو وبروكسل وباريس وسيام وتايلندا وهونغ كونغ ممثلاً «للكومنتيرن» في جنوب شرقي آسيا. ومع التشرذم الذي أصاب جماعته فإنه كان أشبه بالحكم بين الفصائل المتناحرة.

وقد توافق ظهور هذه الجماعات مع قيام اضطرابات عديدة في الهند الصينية. فاتخذتها الإدارة الفرنسية حجة لسحق الحركة بأقسى العنف وبالقمع الوحشي. هوشي نفسه حكم غيابياً بالإعدام بحجة أنه ثوري. ولاحقه الفرنسيون إلى هونغ كونغ. وأخذوا الأذن من السلطات الإنكليزية بالقبض عليه، لولا أنه استطاع الهرب.

بعد سنوات زار الصين وقضى أشهراً لدى ماوتسي تونغ يتحدثان ويخططان، وكان ماو لا يزال يومذاك زعيماً ثائراً. حوالي تلك الفترة اتخذ (هو) لقب هوشي منه، وتعني: (هو) الذي يهدي وينير السبيل. وقامت الحرب العالمية الثانية وهزمت فرنسا في الحرب أمام قوى المحور سنة ١٩٤٠ فجاءت (هو) الفرصة الذهبية واجتاز مع مساعديه الجنرال غياب وفان دونغ الحدود ومعهم خمسة من المتطوعين أوائل سنة ١٩٤١ ليؤسسوا العصبة لاستقلال فيتنام. لكن العصبة اضطرت إلى طلب المعونة من الصين، فقبض شان كاي شيك على هوشي منه وسجنه، وقبل أن

يطلق سراحه بتوسط من بعض الأصدقاء، بعد ١٨ شهراً من السجن، كان (هو) قد كتب «مذكرات من السجن» وهي مجموعة قصائد ملأى بالسوداوية وبالدعوة للثورة.

حين أشرفت الحرب على نهايتها جاء موعد هوشي منه مع المرحلة الاستعمارية العظمى. كانت الظروف قد تعاونت فمهدت له الطريق، كانت اليابان بعد أن هزمت فرنسا على أرضها، قد احتلت الهند الصينية، واعتقلت أو أعدمت الضباط الفرنسيين جميعاً. ولكن إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما عاد فشلَّ الآلة الحربية اليابانية العاملة في جنوب شرق آسيا كلها. وهزمت اليابان. وهكذا انزاح من طريق هوشي منه، العدوّان المحتلان: الفرنسيون واليابانيون، فانتهز الفرصة واتصل بالقوى الأميركية وبدأ حرب العصابات ضد اليابانيين في الجبال، فيما كان الجنرال غياب تحت قيادته يكتسح القوى اليابانية المهزومة، ويتجه بالقوى الفيتنامية إلى هانوي العاصمة، ودخل هوشي منه هانوي، وأعلن منها استقلال فيتنام، مستخدماً العبارات نفسها التي أعلن فيها واشنطن الاستقلال الأميركي: «كل الناس متساوون وقد أعطانا الخالق الحقوق المقدسة: الحياة والحرية والسعادة».

لم يعجب ذلك فرنسا المتمسكة بإمبراطوريتها وأرسلت الفرق العسكرية إلى الهند الصينية ورفضت المفاوضة على الاستقلال، وأعلنت الفيتنام دولة ضمن الاتحاد الفرنسي، ودخل الجنرال لوكليرك هانوي منتصراً.

عبثاً فاوض هوشي منه الفرنسيين في باريس. كانوا مصممين على رفض الاستقلال بالقوة. وقاموا بمذبحة في هايفونغ قتل فيها ٦٠٠٠ فيتنامي سنة ١٩٤٦. وكان القتال هو السبيل الوحيد. ومن قواعده في الشمال بدأ هوشي منه الحرب التي انتهت سنة ١٩٥٤ بسقوط معقل

«ديان بيان فو» في مايو سنة ١٩٥٤، وباستسلام القوى الفرنسية وقسمت فيتنام إلى قسمين مستقلين.

في سنة ١٩٥٩ بدأ حربه لتوحيد فيتنام كان يعرف أن خصمه في فيتنام الجنوبية لم يكن المواطنين أنفسهم ولكن الولايات المتحدة التي ورثت الاستعمار الفرنسي في البلاد، واتخذت فيها القواعد.

وكانت الحرب مريرة مريرة بقدر شراسة العدو الأمريكي، وكانت المفاوضات بعدها مريرة مريرة. لكن هوشي منه لم يشهد نهاية توحيد بلاده. حين كان النصر على الأبواب مات «العم هو» كما كانوا يدعونه. مات سنة ١٩٦٩، وفي وصيته كان يدعو الفيتناميين بأولاد أخيه. ألم نقل أنه وحّد قضيته الشخصية مع قضية بلاده؟

فولتير اليتيم الساخر

الذين يدرسون الثورة الفرنسية ويتلمسون أسبابها الفكرية، يعددون بين المحرضين عليها بضعة أسماء، ولكنهم متفقون على أن يضعوا على الدوام في المقدمة اسم فولتير. هذا الساخر الكبير، النحيل، المجدور الوجه، الطويل الأنف، المعروق الخدين، الذي كان يسحر النساء في عصره قبل الرجال، بحيويته وحركته وسخره القاسي، مع أنه ليس أمامهم أكثر من هيكل عظمي كُسي بعض اللحم والجلد. بعضهم لم يكن يستبعد عن فولتير كلمته نفسها حول تقمص الشيطان للفنان. فقد ضاقت إحدى الممثلات بتوجيهاته وهو يعدها لمسرحية «ميرو»، فقالت: «لكي أمثل على النحو الذي تريد يا سيد فولتير يجب أن يتقمصني الشيطان». فقال فولتير: «هذا بالضبط ما أريد. يجب أن يتقمصك الشيطان إن أردت النجاح في أي فن من الفنون».

والواقع، أن الشيطان كان يسكن جسد هذا الرجل، في الوقت الذي لم يكن فيه بعيداً كثيراً عن الله. لقد جمع بين أعنف الكفر وأعمق الإيمان، دون أن يخون ثقته بالله. وجمع بين منتهى الجد ومنتهى السخر، في وقت معاً، دون أن يغادر الحكمة البالغة، وكان محور حياته كلها الإيمان بالحرية.

ويقولون إن فولتير بدأ الحياة بنكتة وخرج منها بنكتة. ولد طفلاً أقرب إلى الموتى، ولطمته القابلة مرات وبذلت الجهد لتدب الحياة فيه.

وقدر الحضور لهذا الطفل أربعة أيام من العمر على الأكثر، وكانت السخرية الأولى له أنه عاش أربعاً وثمانين سنة، وفي نهاية هذه السنوات دخل عليه القسيس يسمع اعترافاته، فسأله فولتير: من بعثك إلّي أيها السيد؟ فقال القسيس: أرسلني الله. فقال فولتير: إذن فأين أوراق اعتمادك أيها المحترم؟ وبعد قليل اسلم الروح.

وفولتير ليس باسمه، إنه اسم مستعار اتخذه للكتابة. اسمه الحقيقي «فرانسو ماري أرويه». وقد ماتت أمه وهو لا يزال بين الرابعة والخامسة، وكان أبوه جانسينيا متعصباً، ونعني أنه كان يتبع جنة من المتطهرين البروتستانت، تصر على دراسة الإنجيل دراسة شخصية والتبشير بالآخرة. فكل همها إجلاء الناس من الدار الدنيا لتعمير الدار الآخرة. وفرض على ابنه الصغير منذ الصغر أن يكون على عقيدته في هذا التصوف المجرد، فأبعد الطفل بنفسه وبيتمه، لا عن الجانسينية فحسب، ولكن عن كل اضطهاد فكري. وكبرت هذه العقدة ثم كبرت عنده حتى أضحت المبدأ الأول في حياته. صار رسول الحرية الفكرية وكان يفرق بين رفض الفكرة وبين اضطهاد معتنقيها. وهكذا، فالبرغم من كراهيته الأصلية لجانسينية أبيه، فإنه ثار، وهو لما يزل في الخامسة عشرة، لاضطهاد الملك لويس الرابع عشر « الملك الشمس»، (وكان في ذلك الوقت في أواخر أيامه للجانسينية حين أغلق كلية هؤلاء في بور رويال، وحرث بالمحاريث مقابر القديسين من موتاهم وحين حاول أبو فولتير أن يمنعه عن حرفة الأدب لأنها الطريق إلى الموت جوعاً ـ كما يقول ـ وأرسله إلى كلية الحقوق ليكون محامياً مثله، أصر فولتير على إهمال القانون في نوع من الكيد لأبيه وعلى هبة نفسه للشعر الميسر والحب، وحاول الوالد أن يلجم جموح الابن، فألحقه بخدمة أحد رجال البلاط، الذي حذره من الدخول في الدسائس والمطامع التي يعج بها

القصر الملكي، ولكنه فشل في أن يحذر فولتير من لسانه وقلمه، اللذين أوديا به إلى السجن، فقد مات «الملك الشمس» وانساح الكبت الذي رافق عصره، فانطلق فولتير في هجاء الوصي على العرش هجاء نال عليه المكافأة أحد عشر شهراً من السجن في الباستيل، وأعقبها نفيه لمدة سنة عن باريس. وبدأت بذلك ملحمة فولتير مع الحرية وعناده العنيف لإقرار الفكر الحر.

في هذا الوقت، اتخذ اسم «فولتير»، وكتب مسرحية من أبرز أعماله الأدبية هي «مأساة أوديب». وحين حاول الوصي استرضاءه بعد ذلك، وعرض عليه مسكناً في باريس، شكر الوصي ورجاه ألا يعنى بهذا الأمر. فهو يفضل فراشه الخشن في بيته على الفراش الوثير في الباستيل. على أنه وإن نجح في دنيا الأدب والمال، وصار ذا ثروة حسنة، ألا أنه لم ينج من العودة إلى الباستيل مرة أخرى، فقد تعرض له أحد الأشراف الصغار ببعض الإهانة حول أصله فقال له: «اسمي مغمور يا مولاي. ولكني أنا الذي أضفيت عليه الشرف». ودخل فولتير الباستيل بذلك بعد أن نال نصيباً حسناً من الضرب على أيدي المأجورين لذلك النبيل. حين أطلق سراحه ذهب إلى إنكلترا، واتفق وصوله يوم الاحتفال بعيد ميلاد الملك والزورق الملكي يتهادى على التايمز ستة أميال بين سُفن منشورة الأشرعة وبين الموسيقى، وقارن ذلك بالأزمة العنيفة التي يعانيها المجتمع الفرنسي في ظل الملكية المطلقة، فأعجب إيما إعجاب بالنظام الإنكليزي حتى أقبل يتعلم الإنكليزية ويلم بآدابها ويكتب عن إنكلترا كما لو كانت النظام السياسي المثالي، ويفكر بالاستقرار فيها. ليس يعني ذلك أنه فهم الإنكليز وأعجب بهم، فقد ظل على الدوام يعتبر شكسبير من الهمج. ولا الإنكليز تقبلوه أو فهموه، فكارليل سوف يدعو فولتير بالمجنون، ولكنه أعجب بشيء واحد ضرب على الوتر الحساس العميق في

ذاته، أعجب بالحرية الفكرية وكتب في ذلك الوقت روايته الخيالية الممتعة « ميكرو ميكاس الصغير الكبير»، وهي حول أحد سكان بعض النجوم ويبلغ طوله نصف مليون قدم، هذا الرجل الذي يقابل أحد سكان زحل، وهو قزم، لا يجاوز ١٥ ألف قدم. فيتفقان على القيام بجولة في الفضاء، مع أن القزم حديث عهد بالزواج لم يمض على شهر العسل الذي عاناه سوى ٢٠٠ سنة ويقفز الاثنان فوق شهاب مذنب ويسبحان في الفضاء ويهبطان أخيراً فوق ذرة في الفضاء اسمها الأرض. ويخوضان في البحر المتوسط وهو عندهما بركة صغيرة موحلة ويبصران بشيء يتحرك فيخرجانه من البحر ويضعه العملاق على ظفره فإذا هو سفينة وتأخذه الدهشة البالغة حين يرى عليها ذريرات تتحرك وتزداد دهشته ومتعته حين يسمع منهم إنهم جماعة من الفلاسفة وأنهم عائدون من رحلة في القطب وأنهم يعتقدون أنهم مخلوقات خالدة الروح وقد صوروا على صورة الله ويعتقدون أنهم مركز الكون. ويحدث أحدهم عن مشاكل الأرض فيذكر له أنه في هذه الأوقات يقوم مليون من حملة الصليب لمقاتلة مليون من لابسي العمائم من أجل قطعة من الأرض اسمها فلسطين، وكل من الطرفين يدعي أنه صاحب الحق في اصغر ذرة من ترابها. والواقع أنها سوف تؤول في النهاية إلى السلطان أو إلى الملك ويضيفون أنهم لا يدرون سبب ذلك ولا يكادون يدركون المبرر لتسمية هذا الملك وذاك بالسلطان. ويسير الحوار على هذا النحو حتى تقع السفينة عن ظفر العملاق في ثنية سروال صاحبه فيخرجها ويرجعها إلى البحر. وهما يقهقهان. اقتنعا أن هذه الأرض ليست سوى بيمارستان.

من علٍ ينظر فولتير إلى الكون ويسخر وقد عاد إلى فرنسا بعد ثلاث سنوات من المنفى ليجد نفسه مرة أخرى أمام الباستيل، كانت رسائله عن الإنكليز التي لم يقصد نشرها قد نشرت وفيها كل الإيماءات إلى

الملكيـة الفرنسـية ففـر مـن أيـدي الشـرطة لاجئـاً إلى إحــدى النبيــلات المغرمات بأسرار العلوم ومتعة الآداب، وكتب في ظل هذه السـيدة أروع كتبه. وكتبه تبلغ المائة عدداً. عقل فولتير النقاد الساخر الريبي كان يجعل من الشخصيات التي يرسمها دمى تتحرك بآرائه وسخره. كان يؤمن بـأن الله أودع فينا العقل كما كسا الطير ريشاً والحيوان فراء. وللعقـل الغلبـة دوماً على الطغاة آخر الأمر، والناس صارعو الطغاة طال الزمن أم قصـر. وماتت الماركيزة دوشاتليه ففقد سنده ثم بدأ يفقد صحتـه ثـم نفـي مـن باريس فابتاع مزرعة على الحدود الفرنسية مع جنيف في فرني ولكن بعد أن غير شعاره من «اضحك ودع غيرك يضحك» إلى «فكر ودع غـيرك يفكر» واستدعاه ملك ألمانيا إليه ولكنه لم يبـق طويـلاً عنـده فـر قبـل أن تعتصر البرتقالة وترمى قشـوراً. وانعـزل في فرنـي لأعمـال الخـير. وحـين مات كان يبـارك أحـد الأطفـال ويقـول الله والحريـة. كـان يلخـص في الكلمتين جُماع فلسفته.

ليوناردو دافينشي اليتيم العبقري

العابرون من المسافرين بمطار روما يعرفون أن المطار يحمل اسم مطار ليوناردودافينشي، والخارجون من المطار قد يرون في الساحة الكبيرة أمامه تمثالاً برونزياً لرجل ضخم في مثل ثوب الرهبان. ولحيته السابغة تتفق مع عبوس جبهته، وقد كتب تحته اسم «ليوناردو دافينشي».

إيطاليا تعتبر هذا الرجل أحد عباقرتها العالميين، والدارسون لعصر النهضة الأوروبية يضعون اسمه بين الأسماء الأولى، التي حققت تلك النهضة بأفكارها وأعمالها وتمردها المبدع، والرجل بدوره يتيم. أو لنقل بصراحة أكثر، إنه ابن غير شرعي لنبيل صغير من فلورنسا، كان كاتب عدل في بلدة صغيرة، وأمه فتاة ريفية مجهولة، وقد قضى الأيام الأولى معها، لكن أسرة أبيه أخذته بعد ذلك لينشأ في قرية فنشي التي صار ينسب إليها، وألحقته الأسرة منذ فتوته بمراسم المصورين، وكان في الرابعة عشرة من العمر، حين وصل فلورنسا ليدرس الرسم في مرسم أحد كبار المعلمين هناك فروتشيو.

كان ليوناردو، رغم العناية به، يطوي في ذاته جرحه الشخصي ويبدو أن عمق هذا الجرح أوقعه في حيرة البحث عن كيفية التجاوز والخروج من الجرح. كان يعرف أن للفنانين في عهده مكانتهم في المجتمع، كما أن للعلماء مكانهم وللمتعلمين بأكناف البلاضات مكانهم أيضاً فأي طريق يختار؟ لقد اختار الجميع معاً. أن يكون فناناً وأن يكون عالماً بمختلف العلوم ومبتكراً فيها وأن يكون من النجوم الدائرة حول

الأمراء. هل تراه كان يبحث في كل ذلك عن قبوله ابناً شرعياً بين الناس؟ عن تجاوز قدره إلى قدر آخر؟ هو الاحترام من المجتمع؟ قد يكون. ويجب أن نتعرف بأنه نجح النجاح العبقري في كل ما حاوله. كان الأبرز بين الموسوعيين الأوروبيين الأولين. لقد كان الرسم هوايته التي تربع عليها، ويقولون أن أستاذه فروتشيو حين شهد براعته الهائلة في لوحاته، امتنع هو نفسه عن الرسم، ولعله لهذا السبب توجه ليوناردو باهتمامه بعد ذلك إلى النحت، وإلى معرفة أسرار صب البرونز تماثيل، وانفتحت له براعة ريشته أبواب الرسامين، الذين كانت تعج بهم فلورنسا في ذلك الحين بوتشيلي، لورنزو، غرلندايو، في حين بدأت لوحاته الخالدة تظهر للناس، لتكون إحدى الدعائم المعبرة عن عصر النهضة الذي يسميه الإيطاليون «الكواتروشنتو» عصر الأربعمائة.

كان عصر النهضة هذا في تلك الفترة يبلغ أوجه. انهزم منطق العصور الوسطى وماتت معارفها في كتبها الصفراء، وافتقر تصوفها الجاف. فيما كانت حيوية جديدة تنبعث كالربيع في كل الأغصان الجافة، ومدن إيطاليا، التي كانت كل مدينة منها لأسرة أرستقراطية، أخذت تتنافس باحتضان العلماء والفنانين، وفي الابنية والبذخ وأبهة البلاط وتغيرت القيم فصارت اللذة والرفاه والبذخ هي الغاية، وصخبت الحواس وكثرت الصور الجامحة وسرى التغير الفكري في الدروب، كانت ثورة صامتة تجري في العروق ضد الأمن المضطرب في أوروبا والشوارع الضيقة والغابات الكثيفة والظلم الاجتماعي المقيم، والقيم الدينية المظلمة، وإذا عاد الناس في ذلك الوقت إلى تعرية الجسد، وإلى الإيمان بعظمة الإنسان، وإلى مغالبة الطبيعة للسيطرة عليها، وهي ما سمي بإحياء العهد الإغريقي، فإنما كان ذلك محاولة للهرب من ضيق العصور الوسطى أكثر منه عودة الماضي القديم.

وفي هذه الزحمة وضمن هذا الجو يبرز ليوناردو في جملة الذين برزوا يمثلون الطلائع الأولى لهذا التطلع التجددي العنيف الذي لا يدري أين يسير، ولكنه دون شك كان يبحث عن الجمال في كل شيء. لقد صار الجمال الإنساني هو رمز النهضة، وصارت الأفكار الكاملة نوعاً من الجمال وساد التسليم بأن الجمال الإلهي هو الذي يشع في الكائنات جميعاً ويهبها جمالها الأسمى.

في هذا الإطار توالت لوحات ليوناردو. عبادة الرعاة المحفوظة في متحف الأوبيس في فلورنسا، ولوحتا العذراء، وعذراء الصخور المحفوظتان في متحف اللوفر بباريس وفي ناشونال غاليري في لندن. وكان قد استدعاه الدوق لومور إلى ميلانو ليتابع فيها أعماله ولكن في النحت. وصنع التمثال البرونزي الضخم لابن الدوق فرانسوا سفورزا وهو على صهوة جواد، وقد دمر هذا التمثال في حروب إيطاليا، ثم ما لبث الطاعون أن ضرب ميلانو في سنتي ١٤٨٤، ١٤٨٥ مما دفع بليوناردو إلى توجيه الاهتمام إلى منحى جديد هو تخطيط المدن، والبحث عن تأمينها الصحي، وعن فتح الأقنية وحفر المجاري، وطلب منه أن يصمم قبة الكاتدرائية في ميلانو فصنعها، وأن يزين صدر كنيسة سانتا ماريا بصورة العشاء الرباني فرسم فيها ملء الحائط واحدة من أروع اللوحات العالمية لا تزال في مكانها من الحائط إلى اليوم، ويجهد الفنانون في تجديدها وحفظها.

كان ليوناردو لا يفرغ في أعماله هذه عبقريته الكامنة وحدها ولكن يفرغ فيها تصوراته للجمال الأكمل سواء في العمارة أو في النحت أو في تنظيم المدن أو في الرسوم الدينية. على أنه كان يقترب في هذه الفترة من الخمسين في العمر ولم يعرف له أي نشاط علمي. والناس يذكرون أنه إلى جانب الرسم والنحت وصب البرونز مهندس معمار موسيقي عالم

بالميكانيك وبالهيدروليك وبالرياضيات والفيزياء كما يعرف الكثير في علوم النبات والجيولوجيا والطب والتشريح والفلك وله فيها مشاركات ومبتكرات فأين ليوناردو العالم؟ لقد استدعاه قيصر بورجيا أمير فلورنسا سنة ١٤٩٩ وأحد زعماء الحرب الكبار في عهده ليكون مهندساً عسكرياً عنده فأين هندسته وعسكريته؟ الواقع أن ليوناردو لم يؤلف أي كتاب ولم ينشر شيئاً ولم يكتب إلا لنفسه، كان قد اكتفى من البروز بالسمعة الفنية وبتوالي الدعوات له من الأمراء. فأما العلوم فاحتجز معرفتها لنفسه رصيداً يساعده على الظهور الاجتماعي وإثبات الوجود عند الحاجة، مخطوطاته هي التي كشفت مبتكراته أيضاً، وتوالت مذكراته حوالي ٣٠ سنة كان يحدد لنفسه خلالها طرائق العلوم وغاياتها ويفسر قوانين الطبيعة ويطبق الطرائق التجريبية بذكاء واضح وفهم دقيق ويتنبأ بمستقبلها رافضاً التسليم بالعلم الأرسطي كله. وهذا ما تكشف عنه رسومه التخطيطية التي تركها بالمئات. إنه كان يعرف الكثير في تشييد الحصون والقلاع وتشهد أنه كان يحاول اختراع الطائرة الغواصة وأنواع المدافع الضخمة والمصفحات والراجمات. كان سابقاً لعصره في هذا كله.

وقد شغله هذا عن الإنتاج الواسع في الرسم أواخر حياته لكنه مع ذلك رسم ورسم بعضاً من لوحاته الخالدة. وقبل أن يستدعيه فرانسوا الأول ملك فرنسا إلى باريس قضى سنتين يرسم زوجة أحد كبار الموظفين في فلورنسا موناليزا المعروفة بالجوغوندا على اسم زوجها والصورة فتنت الناس بابتسامتها المحيرة ولها في متحف اللوفر في باريس اليوم المحراب الخاص والحراس. وتنقل بين فلورنسا وروما وميلانو وباريس يسجل تأملاته العلمية زاهداً في الفن بعد أن بلغ القمة فيه حتى أن البابا ليو العاشر لم يستطع أن يحمله على العمل في تزيين كنيسة الفاتيكان مع معاصريه الشهيرين ميكيل أنجلو ورفائيل ويئس منه. كان

ليوناردو الصبي المقهور قد انتقم لكرامته الجريحة بما فيه الكفاية فهو يفتش عن آفاق أخرى ولكنه مات قبل أن يدركها.

الطريف أنه كان يكتب بيده الشمال وبعكس الطريقة في الكتابة المعروفة في اللغات الأجنبية فأنت لا تقرأه إلا بمرآة عاكسة، ترى هل كان يعبر ذلك عن احتقاره أخيراً للمجتمع الذي بدأه بالاحتقار.

أتاتورك، اليتيم أبو الترك !!!

حين كان في الشام ضابطاً من ضباط الجيش التركي العثماني الذي يحارب إنكلترا على القناة، قناة السويس، لم يكن يلفت نظر أحد. بلى! كانت له تحت «قلبقة» من فراء الخروف عينان صغيرتان خزيتان غارقتان في المحجرين.. وحاجبان كثيفان بارزان يوحيان بالكبرياء والعنف وخدود ناتئة وقامة مربوعة.. ولكن ما أكثر الضباط إذا ذاك بهذه الصفات في الجيش. ومصطفى كمال اسم شائع حمله المئات فليس يبين له منتمى أو لون !!!

فجأة بعد أن هزمت تركيا العثمانية في الحرب العالمية الأولى برز الاسم والضابط وحارب وانتصر. كأنما كان ذلك بمعجزة من المعجزات، وصار خلال سنوات معدودة رئيساً للجمهورية التركية وأباً للترك ووريثاً للسلاطين الذين حكموا الجانب الشرقي للمتوسط من البلقان حتى اليمن والخليج وما بينهما أكثر من خمسماية سنة! فمن الرجل؟

إنها قصة طويلة طويلة لأنها قصة تركيا الحديثة.. بعضهم يرى فيه البطل المنقذ وبعض يرى فيه الشيطان الرجيم.. بعضهم يقول إن الرجل من يهود الدونما الذين هربوا من إسبانيا إلى عدل الدولة العثمانية وأن أباه أو جده دخل الإسلام وبعضهم وهو الذي عليه الناس أنه ابن أسرة متواضعة الأصل كانت تسكن سالونيك على بحر إيجة غير بعيد من غربي

استامبول. وأن أباه يدعى علي رظا (رضا على عادة الترك بتحويل الضاد ظاد) من صغار الحكام الموظفين وأن أمه تدعى زبيدة (هانم) وقد أعطي حين ولد سنة ١٨٨١ اسم مصطفى فهو مصطفى علي رضا! وكان لا يزال في التاسعة من العمر، وفي المدرسة الابتدائية حين فقد أباه...

وأخذت الأم طفلها عند خاله في الأناضول ثم فضلوا له أن يعود ليكمل الدراسة الابتدائية في سالونيك ويلتحق بالمدرسة العسكرية الثانوية فيها. وفي هذه المدرسة أضيف اسم كمال إلى اسمه الأول على عادة الترك العثمانيين في تفريق الأسماء الشائعة بعضها عن بعض بإضافة اسم إليها. وهكذا صار الفتى مصطفى كمال.

وانتقل الفتى إلى مدرسة مناستير العسكرية حيث شهد الهجمات الفاجعة التي لا تنقطع من الفوضويين المسيحيين على المقدونيين المسلمين وهذا ما حوله بسرعة إلى متعصب للترك والأتراك والطورانية. وكان في الثامنة عشرة حين دخل الكلية العسكرية في استامبول. وهناك انخرط في الأجواء السياسية للضباط المناهضين للسلطان عبد الحميد. وهناك قرأ المنشورات السرية ضد «الطاغية» وتأثر بليبرالية الشاعر التركي نامق كمال بك. وقرأ عن الثورة الفرنسية وعن عبقرية نابليون العسكرية. كان يود لو يصبح نابليون الدولة العثمانية.

حين تخرج عين في فرقة الخيالة بدمشق. وهنا شكل مع بعض رفاقه: «وطن حريت» - حين عاد بعد ذلك إلى سالونيك التحق كمعظم رفاقه الضباط بحزب الاتحاد والترقي الذي كان ينشر نشاطه في الجيش والذي تمكن في سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩٠٩ من خلع السلطان عبد الحميد!!!

وانصرف مصطفى كمال بكليته بعد ذلك إلى تطوير مسلكه العسكري. خدم في ليبيا وفي غاليبولي وفي صوفيا. ونقل إلى الشام مع انفجار الحرب العالمية الأولى واعتبر الثورة العربية الكبرى خيانة للترك

والإسلام. ثم عاد ليكون قائد شناق قلعة ضد الحملات الإنكليزية ثم ليرافق ولي العهد وحيد الدين إلى برلين ويزور الجبهات الألمانية..وهناك استقام في خاطره أن لا خلاص للدولة العثمانية إلا باتباع الغرب. كان قد كره كل ما يربط الترك بالشرق واتجه فكره غرباً غرباً..وحين مرض وأرسل للعلاج في كارلسباد قرب فيينا كان قد تغرب تماماً!!

وأرسل مصطفى كمال بعد ذلك لقيادة الجيش السابع في فلسطين سنة١٩١٨ لكن الهزائم لاحقته حتى أخرجته منسحباً إلى ما وراء حلب وكان أكثر ما آلمه هجمات العصابات العربية على جيشه... وحين عهد إليه بقيادة الجبهة الجنوبية الشرقية في الأناضول كانت قد تشكلت لديه عدا عقدة اليتم عقدتان إضافيتان: عقدة الغرب المتقدم وعقدة العرب «الخونة» للدولة والدين!

وحين نقل بعد ذلك إلى وزارة الحرب في استامبول شهد حين وصلها أسطول الحلفاء المنتصرين راسياً في البوسفور وشاع أنهم يتفقون سراً على اقتسام آخر ممتلكات «الرجل الضعيف»! بعد أن احتلوا ليبيا ومصر واقتسموا بمعاهدة سايكس بيكو بلاد الشام والعراق. وامتلأت نفس الرجل حقداً حين رأى الأقليات في استامبول تنظم نفسها لتأخذ حصتها من الميراث كما نظمت ما سمته بجمعيات الدفاع عن الحقوق في المدن الأخرى.

وطفح الكيل بالجنرال اليتيم.. ماذا يفعل؟!

كان في استامبول تياران: أحدهما يقبل وضع بقايا الدولة التركية تحت حماية إنكلترا ومن هذا الفريق كان السلطان نفسه والقصر والحاشية. والآخر تحت حماية أمريكا وفيه المفكرون والصحفيون وهما أمران أحلاهما مر. ووقف مصطفى كمال مع بعض ضباط الجيش يرفض التيارين ويدعو في السر قادته للرفض والقتال من أجل حفظ الاستقلال!

وحين عين مصطفى كمال لإخماد الفتن في شرقي الأناضول من الأكراد والأرمن انتهزها فرصة للخروج في موكب كبير من الضباط والعدة ثم ليجعل من موقعه في الأناضول مركز نضال ضد السلطان والحكومة في استامبول.. وقد وصلت الأوامر إلى أرضروم بتوقيفه وسوقه إلى العاصمة. لكن مصطفى كمال استقال من منصبه العسكري وتحول زعيماً وطنياً يطالب بالحرية وبوحدة الأراضي التركية. وأقام مجلساً وطنياً في سيواس صار رئيساً له. لكنه رفض إقامة دولة مستقلة هناك. كان يريدها شاملة لكل الأراضي التركية!!

ونقل مقر أعماله بعد ذلك إلى أنقرة ولم يأبه لصراخ الصدر الأعظم فريد باشا بأن أعماله أعمال تمرد وثورة وأنها غير شرعية.. وفيما كان ينجح في الانتخابات للمجلس الوطني في استامبول خاف الإنكليز العاقبة واحتلوا العاصمة وحلوا المجلس! وخدمت هذه الأعمال مصطفى كمال كل الخدمة لأنه في المجلس الثاني الذي انتخب واجتمع في أنقرة وكان أول مجلس وطني كبير لتركيا اختيررئيساً له.!

هل انتهت مطامع هذا اليتيم عند هذا الحد؟! الحقيقة أنها بدأت فما يزال حلمه خبيئاً في صدره. إنه يريد الخروج من الشرق كله ومن الإسلام ومن كل أثر يربط تركيا بالعرب. وكيف يكون ذلك وكل الرموز الكبرى في الترك من الدين والسلاطين والخلافة إلى اللغة والكتابة، ومن التراث الطويل والفن إلى التاريخ والعمارة كلها مربوطة بقوة إلى هذا الجذع الضخم الذي يسمى بالعرب؟

واختار مصطفى كمال أن يضع رصيده الوطني كله في هذه المعركة المضادة للتاريخ.. وفعل.

تسلم بوصفه رئيس المجلس رئاسة الحكومة وأعلن انتهاء النظام الإسلامي في الحكم من سلاطين وخلافة وتأسيسه كما في الثورة

الفرنسية على الأساس الديمقراطي.. ثارت عليه القلاقل فأخمدها بـالقوة.
وفي حين كانت حكومة استامبول توقع معاهدة سيفر في بـاريس اشتغل مصطفى كمـال بقضايـا الحـدود والمنـاطق المحتلـة.. كـان الأرمـن والجيورجيون في الشرق قـد استقلوا فأعـادهم إلى الحظـيرة بعـد توسـط روسيا لعقد هدنة معهم. وبعد حرب عصابـات قاسية تـرك الفرنسيون كيليكيا الـتي احتلوهـا مقـابل بعـض الأراضـي الـتي يسكنها الأكـراد في الجزيرة الفراتية. وحين تقدم اليونان الذين يحتلون سواحل بحر إيجـة حتـى أصبحوا على مبعدة ٥٠ كيلومتراً من أنقرة هزمهم في أقل مـن أسبوعين واضطرهم لإخلاء إزمير وكل سواحل بحر إيجة.

وبقيت استامبول التي دخلها مصطفى كمال أخيراً الدخول السياسي. كان الإنكليز قد ملوا الحرب خمس سنوات دون جدوى ضد روسيا الـتي تحولت بعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ إلى الشيوعية. ورأوا من الأفضـل أن يطوقوهـا بـدول صداميـة قويـة فـاتجهوا بسياسـتهم إلى التسـامح والتفاوض السري مع القوة الوطنية الناشـئة في أنقـرة وتخلـوا عـن شـناق قلعة وعن استامبول ليدخلها مصطفى كمال ظافراً والسيوف الإنكليزيـة منكسة أمامه إلى الأرض.

وأبحر السلطان وحيد الدين، آخر سلاطين بني عثمـان منهيـاً بذلـك عهـداً عثمانيـاً بـدأ في الأنـاضول قبـل ٦٠٠ سـنة وألغيـت مـع السـلطنة الخلافة الإسلامية وعدلت بمعاهدة سيفر معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ وبدأ في تركيا عصر جديد تماماً هو عصر مصطفى كمال الذي ما يزال قائمـاً إلى اليوم.. تميز هذا العصر بمحاولـة اقتـلاع الأمـة التركيـة مـن جذورهـا لتوضع في تربة أخرى قوامها:

- الهرب الكامل من اللغة العربية كتابة ومفردات واللجوء إلى الحرف الأجنبي والمفردات الطورانية والأجنبية حتى في الأسماء والكنى. وحتى في القرآن الكريم نفسه الذي ترجموه إلى اللغة التركية وفي الآذان.

- العلمانية، فالدولة الإسلامية العثمانية انتهت. وهذه الدولة لا دين لها ولا شيوخ ولا تعليم دينياً فيها. وإن كان يمكنك أن تقرأ القرآن في صلاتك أو في بيتك بلغته وتعلم أولادك في البيت ما شئت من العقيدة.

- التحديث على الأساس الغربي حتى في اللباس فالجميع إلى القبعات والسراويل وإلى مظاهر الحياة في الغرب.

- إلغاء حجاب المرأة بالقوة أحياناً في جميع أنحاء تركيا وإجازة الرقص والحياة المشتركة ومنح المرأة حق التصويت والمساواة مع الرجل.

- إلغاء الأحكام الشرعية وأن يستبدل بها القانون المدني الفرنسي والقوانين الغربية الوضعية الأخرى رغم المعارضة الدموية لذلك في الأناضول.

وأسس مصطفى كمال حزب الشعب التركي ليسهر على كل تلك الإصلاحات بزعامته. وتسمى بأتاتورك فصار أبا الأمة التركية.

كان هذا كله يجري في الواقع في العاصمة، وما حولها وفي المدن الكبيرة أما الريف الأناضولي الواسع فكان وما يزال - غارقاً في الفقر وفي أساليب الحياة السابقة رغم المظاهر الغربية التي أجبر عليها في اللباس. كان الإصلاح الكمالي قشرة على السطح في إطار مناطق محددة أما باقي الشعب فبقي في العتمة والظلام.. فلا الغرب قبل تركيا قطعة منه ولا الشرق بدوره خرج منها فهي حائرة بين الطرفين.. ما كسبت من «التأورب» إلا المظاهر والقشور ولا هي في ضميرها تخلت عن الدين والتاريخ. إنها تبكي لفقد العناية بهما.

قضى أتاتورك سنواته العشر الأخيرة في أعنف الأمراض وكانت آخر أعماله أنه استغل شبح الحرب العالمية الثانية القادمة سنة **١٩٣٨** وقبض من الفرنسيين ثمن حياده المقبل فيها قطعة من الأراضي السورية هي لواء الاسكندرونة رغم معارضة أهله ورفض الحكم الوطني السوري لهذه المنحة الغربية. فهو مقتطع إلى اليوم.

بقي أتاتورك رئيساً للجمهورية ما بين **١٩٢٤** حتى مات سنة **١٩٣٨**. وبنوا له قبراً هائل المساحة يطل على أنقرة وتحرسه ثلة من الجند والأعلام إلى اليوم.

ذهب أتاتورك منذ نصف قرن. لكن الانحراف القومي الذي أقامه تحول في تركيا إلى مؤسسة ما انفكت توجه الأمة التركية إلى اليوم.

إنها تعيش في عطش إلى الدين..

كما تعيش دون تاريخ!!

آتيلا اليتيم: سوط الله

كان ذلك في أواسط القرن الخامس للميلاد.

وكانت أوروبا يومذاك بحراً متصلاً من الغابات والشجر ومن البدائية والثلوج. لا باريس كانت أكثر من قرية وبضعة كنائس ولا برلين أكثر من تجمع بيوت وأكواخ. أما الطرق فللوحول والصقيع. تعبر عليها العربات الخشبية الخشنة بالبغال والجواميس على الدروب كمن يعبر إلى العالم الآخر: أشباحاً شقراء مبعثرة الشعور يعوي حولهم الأطفال. ومن ورائهم قافلة من الروائح الكريهة!! إنهم لا يغتسلون إلا مرة في السنة أو في السنتين. جنوب أوروبا المطل على البحر المتوسط وحده كان ينعم بالحضارة.

إنها روما وأثينا والمدن التي فرختها هاتان المدينتان في ذلك الجنوب. عمارة رائعة.. جيش لا عد له. أدب وشعر وفلسفة وفنون. نظام سياسي امبراطوري مستقر. وسائل حياة موفورة.. حمامات وطرق مرصوفة بالحجر.. عبيد بعشرات الآلاف للطحن وكسح الطرقات وحفلات الأنس وخليط ديني بدأت تغلب عليه المسيحية بألوان مذاهبها. تاريخ طويل من الأمجاد الحربية.. ولكن ذلك كله إنما كان في جنوب نهر الدانوب والرون والغارون. كانت مجاري هذه الأنهار هي الخد الفاصل بين عالمين. ووراء هذا الخط إلى الشمال كانت الغابة هي السيدة وكان الثلج والصقيع والدروب الباردة المرعبة والعواصف يطارد بعضها بعضاً

في السماء. على أن روما كان قد أفسدها البقاء الطويل. ترهلت. الفساد الخلقي والإداري والاقتصادي كان قد نخر في البناء القديم لها والذي صار يعرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة وانقسمت قسمين أحدهما في الشرق وعاصمتة القسطنطينية (بيزنطة) والآخر في الغرب مع روما.

أسباب عتيقة ومعقدة كانت وراء هذا الانهيار المتمادي كان من دلائله ومن أسبابه اكتساح قبائل الجرمن الشمالية لأقسام متعددة من أرض هذه الإمبراطورية. على مهل ولكن بإصرار. من شمال البحر الأسود حتى إسبانيا بل حتى شمال أفريقيا امتدت هذه القبائل البدوية القادمة من الشمال فأعطت أسماءها للمناطق التي احتلتها أو مرت بها. القوط الشرقيون والغربيون. الفرنجة. اللومبارد. السكسون الألمان اليورغون.. أقوام بعد أقوام زحفت نحو الجنوب وتوطنت برضى الإمبراطورية العجوز أو على الرغم منها في المناطق الأوروبية من ممتلكاتها. سمعة الإمبراطورية بالبذخ الشديد هي التي جرت هؤلاء البدائيين للزحف.. غير المقدس!

وفجأة انفتحت على أوروبا بعد بوابة الشمال بوابة جبال الأورال من الشرق. ومن ثغراتها انهمرت سنة ٢٧٢م. وما بعدها خيالة المغول التي لا تعرف التوقف..رؤوس طلعها كأنه رؤوس الشياطين وجموع متدفقة كالسيول الجبلية بالفراء الكثيف.. وسنابك خيل تدوس الأخضر واليابس وتخترق الغابات نافذة بين أشجارها وطرقها كالأسهم المسمومة. سكان أوروبا القلائل، حتى بعد أن انضم إليهم الجرمن كانوا يرتجفون أمام هذه الصواعق البشرية فيفسحون لها الطريق أو يصطدمون برغمهم معها ليذوقوا العذاب الأليم. هرب بعضهم بخيامه وثقله إلى أقصى الأرض في فرنسا وإسبانيا فرقاً ورعباً.

لقد جاء «الهون» كانت هي الكلمة التي سرت بالذعر في أوروبا كلها! كانت قبائل الهون قد قضت أكثر من مائتي سنة في زحفها المرحلي ما بين الصحارى المنغولية والسهوب حول بحيرة بالكاش في آسيا الوسطى. وحين أعيتها المقاومة الصينية لها هناك زحفت غرباً عبر جبال الأورال على السهول الرومية الخضراء الباردة. وحين عبروا نهر الفولغا تصدى لهم القوط الشرقيون القاطنون هناك. ولكن النتيجة كانت مأساوية. انتحر ملك هذه القبائل إثر خسرانه معركة ارمانريخ أمام هذه الجموع التي استعبدت شعبه بعد ذلك مائة سنة! وزحف الهون غرباً. وسالمهم الرومان أولاً ليأمنوا شرهم فنزلوا في أرض البلغار على البحر الأسود!..

وفي هذه الفترة برز بين الهون يتيم صغير صار اسمه رعب أوروبا كلها: آتيلا! كان ذروة وحشية الهون. كان عمه روا Rua ملك القبائل حتى سنة **٤٣٢** لأن أخاه الملك مات مبكراً. وحين توفي العم تولى الحكم ابنا أخيه. وقد قتل أحدهما بسرعة Belda سنة **٤٤٤** لينفرد أخوه الثاني بالعرش:آتيلا، ولينتقل بمقره إلى المجر وليسجل اسمه بالدماء والسيوف والأشلاء في أنحاء أوروبا. ولم يكن العرش عرشاً ولكنه خيام واسعة من الجلود والفرو والطرر والخدم الكثير.. ولكن هذا العرش كان يرعب روما العجوز بنصف مليون مقاتل وراءه ورهن إشارته. وكانت روما والقسطنطينية من الخشية يدفعان الإتاوة سنوياً للهون عن يد وهما صاغرتان منه سنة **٤٢٢**م. ومن ذا الذي يستطيع الامتناع عن الدفع في وسط أوروبا أوشرقيها بعد أن دفعها الإمبراطوران العظيمان؟ لقد حاولا رفض الإتاوة سنة **٤٥٠** ولكنهما عادا لدفعها مرغمين!!

كانت عيون نصف المليون المشقوقة إلى الأعلى شقوقاً في أطراف وجوههم لتغلق ما وراء الوجوه بدل أن تفتحها في انتظار إشارة من

الملك. وكانت تفتك دون انقطاع في شمالي البلقان في غارات فاتكة مدمرة أشاعت لقب «سوط الله» على آتيلا. وكان المغولي يضحك ملء شدقيه حين يسمع اللقب ويحاول أن يكون فعلاً سوط الله المعذب. لقد أسر ونهب أعداداً من البلاد الرومانية عبر الدانوب لم تستطع الجيوش الرومانية أن تمنعها من الانهيار. كل مدينة كان يقصدها كانت تعرف أنها ستنقلب خرائب وأشلاء على الجدران.. وبضع نائحات أهملتهن السيوف! خوفاً من هذا قبلت الإمبراطورية الشرقية (في القسطنطينية) أن تدفع الإتاوة الحربية التي تقدر بحوالي/٢٧٠٠/ كغ من الذهب وأن تكون الإتاوة السنوية بعد ذلك ٩٥٠ كغ. لكنها أخلت شريط الدانوب الجنوبي من المدن والحاميات والناس.. أضحت هذه الضفاف منطقة خالية!

وجاءت في الطريق قصة حركت في آتيلا أحلامه: كانت أونوريا، أخت الإمبراطور فالنتين الثالث في روما متهتكة. ونتيجة لفضيحة أخلاقية نفاها أخوها الإمبراطور إلى القسطنطينية. وأرادت أن تنتقم فأرسلت خاتمها إلى آتيلا طالبة منه الإغاثة. وفهم آتيلا من ذلك أنه عرض زواج فخطبها إلى أخيها طالباً نصف أوروبا الغربي بائنة زواج! كان ذلك أكثر بكثير مما يقدر الإمبراطور على دفعه وإن كان ينسجم مع أحلام المغولي الطموح. وحين رفض طلبه برفق تحرك بكل وحشية رجاله ليأخذ المنطقة الواسعة بالقوة. زحف بمئات الألوف نحو الغرب. كان المغول يزحفون عدد الرمل والحصى والتراب. اجتازوا نهر الرين وركضت خيولهم في السهول الفرنسية حتى باريس ثم حتى أورليان وانساحوا جنوباً يدمرون ويفتكون كيف شاؤوا. دمروا غاليا (فرنسا) كلها وتركوا الأشلاء في الخرائب وعلى الطرقات تبكي جماجمها بعضها لبعض.. لم يمنع هذا الشعب الوثني لا الصلاة في الكنائس ولا القتال

المريع.. وصار آتيلا صاحب أكبر إمبراطورية عرفها العالم حتى وقته. إنها تمتد من حوض بحيرة بالكاش إلى أقصى فرنسا!

واضطرت روما اضطراراً أن تدافع عن أملاكها في غرب أوروبا. وأرسلت جيشاً ضخماً جمعت فيه كل قواها بقيادة قائدها آيتوس فوقف لآتيلا عند بلدة شارون في الجنوب وقاتله القتال العنيف الطويل الذي قتل فيه ملك القوط الغربيين. لكن آتيلا هزم في المعركة سنة ٤٥١. وبعد قليل انسحب بجيوشه من غاليا (فرنسا) عائداً إلى مقره.

لم تكن الهزيمة نهائية فقد عاد آتيلا يلعق جراحه في المجر حيث انطلق. وليعود في السنة التالية فيهاجم إيطاليا ويزحف باتجاه روما. الانتقام منها هو الذي كان يملأ رأسه وخياشيمه. ونهب المدن في طريقه ودمرها على رؤوس أصحابها. ويقولون: إن عدل عن فتح روما بسبب دفاع البابا ليو الأول عنها وصلواته من أجلها. والحقيقة هي أن المجاعة هي التي أوقفته. آتيلا افتقد المؤن لجيشه الكثيف فآثر الرجوع على أن يعد العدة في السنة القادمة. على أنه لم يعد.. لأنه مات سنة ٤٥٣ وفي نفسه من روما حسرات طويلة.

وسرعان ما تفرقت جموعه وذابت، لا تدري كيف ذابت في أوروبا مع الآخرين!! لا تدري كيف تمزقت سريعاً تلك الإمبراطورية البدوية الواسعة وراءه ومن بعده لم يبق من هذا اليتيم الطموح ولا من شعبه سوى الاسم الذي بقي خالداً في «هنغاريا».

دي فاليرا زعيم إيرلنده الغريب تنها

... وتسمع بين يوم وآخر تلك الحرب المستعرة في صمت وإصرار ما بين الإنكليز والإيرلنديين الشماليين وأخبار الجيش الايرلندي السري والقنابل والانفجارات والأسلحة المخبأة والقتل ومحاولات الاغتيال...

تلك الجزيرة (إيرلنده) المجاورة للأرض الإنكليزية والتي تشكل لولا البحر الداخلي بينهما قطعة منها ما تزال رغم برودتها تستعر بالثورة والحقد ضد إنكلترا. يقولون إنها بسبب ضعف الموارد تصدر الرجال كما تصدر الأغنام والبطاطا وإن قسطاً كبيراً من رجالها الذين هاجروا يشكلون كتلة ضخمة بين سكان الولايات المتحدة كما يقولون إن أجواءها الصقيعية وضبابها الذي لا ينكشف يضفيان على هضابها وجبالها في الشمال والجنوب ليلاً من الغموض والعزلة كما يجعلان طابع السهول الوسطى باهتاً لا لون فيه!

إنهم ابناء الضباب هؤلاء الشقر المنعزلون في أقصى الشمال الغربي من القارة الأوروبية باعتدادهم القومي وبكنيستهم الكاثوليكية... وبأحقادهم على الإنكليز!!

والكاثوليكية هي محور الخلاف بين الجزيرتين الجارتين أكثر من الأصل العرقي لهما. ولكن هذا الأصل العرقي السلتي يأتي رديفاً للخلاف المذهبي. ويعززه أمر ثالث ليس أقل أثراً هو تاريخ العلاقات بينهما. هذا

كله يجعل الايرلندي بعيداً عن الإنكليز، رغم القرب الجغرافي بعد الفلبيني والهندي عنه.

وماذا يذكر الايرلنديون من علاقاتهم مع الإنكليز ليتذكروا؟ تاريخ هذه العلاقات كله آلام. اغتصاب أراض. وإقطاع واسع وثورات مجهضة واضطهاد مذهبي وتدمير كنائس. لمدة ثلاثة قرون كان المنتصرون فيها على الدوام هم الإنكليز. والمتحملون للاضطهاد والتنكيل أو الهاربون في أرض الله هم الايرلنديون. وزادت هذه العلاقات سوءاً وتوتراً منذ انتشرت ريح القوميات في أوروبا أواخر القرن الماضي.. وبلغ الحقد أقصاه!!

وحين رأى الإنكليز نذر الحرب العالمية الأولى تطل في الأفق وما يمكن أن تكون لهم إيرلندا فيها كالشوكة في المخدة أو أكثر من ذلك كالسكين في الظهر أصدروا قراراً بمنحها الحكم الذاتي. تعبوا من معاناتهم معها ومن معاناتهم معهم. لكن هذا القرار ما كان ليرضي الإيرلنديين الذين يطالبون بالاستقلال الكامل والانفصال عن إنكلترا والإمبراطورية البريطانية التي كانت كمعدة الدينا صور القديم تلتهم العالم!

وجاءت الحرب. وكانت أصوات المدافع فيها أعلى من أصوات الناس. فما إن سكتت المدافع في النهاية حتى تحركت الثورة في إيرلنده للخلاص. حرب حقيقية قامت بين الطرفين سنتين واضطرت إنكلترا لإنهائها بالرضوخ لمطالب الإيرلنديين لكنها أعطت إيرلندا الكاثوليكية الاستقلال واحتفظت في شمال إيرلندا بمقاطعة فيها جانب من الانكليكان هي (أولستر) أبقتها في يدها.. كان ذلك سنة **١٩٢١**.

قبل ذلك بكثير كان شاب غريب اسمه دي فاليرا يراقب الأحداث ويرافقها خطوة خطوة ويحركها. هل نقول غريب!! بلى! فقد كان أبوه

فناناً إسبانيا (ويظهر ذلك في تركيب اسمه) ومع أن أمه إيرلندية إلا أنه ولد أمريكياً في نيويورك سنة **١٨٨٢** فهو إسباني أمريكي ولكن موت أبيه وهو في الثانية من العمر أجبر الأم على العودة به إلى أهلها في إيرلندا، وهم بعض الفلاحين هناك في مقاطعة ليموريك.

وهناك نشأ الطفل اليتيم في المدرسة المحلية ثم في كلية دبلن ثم تخرج بالشهادة الجامعية من الجامعة الملكية وصار معلماً للرياضيات ولكنه كان في الوقت نفسه نصيراً متحمساً لإحياء اللغة الإيرلندية بدل الإنكليزية.. وصار إيرلندياً بإرادته وطوعه حين التحق سنة **١٩١٣** بالمتطوعين الإيرلنديين الذين يعملون لمقاومة كل حركة مضادة للحكم الوطني الإيرلندي! وحين ثارت الثورة في دبلن ضد اللغة الإنكليزية المفروضة كان دي فاليرا يقود مجموعة من الثائرين ويحتل عمارة من العمارات كما كان آخر المستسلمين!!

هل كان هذا اليتيم يريد أن يثبت أن الدماء في شرايينه دماء إيرلندية خالصة كالآخرين؟ إن الذي أنجاه من الإعدام هو أنه مولود في أمريكا فهو يعتبر أمريكياً وهكذا حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة. لكنه خلال ذلك كان قد أضحى الزعيم غير المنازع للجمهوريين في البلاد. أكان هذا الإسباني اليتيم يرد الصفعة لإنكلترا التي هزمت إسبانيا في معركة الطرف الأغر وأغرقت إمبراطوريتها ؟ لعله هو نفسه لا يدري!

واختبر دي فاليرا وهو بعيد رئيساً للحزب الثوري الجمهوري سين فين Sinn Fein الذي كسب ثلاثة أرباع المقاعد في المجلس الإيرلندي آخر سنة**١٩١٨** وبعد هرب درامي من سجن لنكولن، هرب متخفياً إلى الولايات المتحدة! أكان هذا نهاية اللعبة؟ بل كان بدءها. لقد أقبل يجمع المال من الإيرلنديين للثورة في حين كانت حرب حقيقية تقوم في شوارع

دبلن وعلى هضاب إيرلندا المعتمة بين الإيرلنديين والقوى الإنكليزية واستمرت سنتين.

وعاد دي فاليرا مع الهدنة التي أعلنت بين الطرفين ليكون المفاوض باسم إيرلندا. ونجح دي فاليرا في انتزاع الاستقلال وإن قبل باقتطاع إقليم لوستر في الشمال ليبقى هذا القطاع إنكليزياً ويكون خميرة النزاع في المستقبل.. كما هو اليوم!

وغضب الكثير من أهل إيرلندا لهذا الاقتطاع وحين وافق المجلس الإيرلندي Déil Eirean التنفيذي على الاتفاق وافق بأغلبية ضئيلة. وقامت الحرب الأهلية في إيرلندا بعد ذلك فوقف دي فاليرا بجانب الجمهوريين وسجن. فلما أطلق سراحه سنة **١٩٢٤** أسس حزب المقاومة الجمهوري الذي نجح أخيراً في دخول المجلس الإيرلندي والدفاع عن الاتفاق مع إنكلترا باعتباره «صيغة سياسية فارغة» وعن دفع المبلغ السنوي لها عن ممتلكاتها باعتبار ذلك طريق الخلاص!

ودعى لتشكيل الوزارة فعاد يوطد العلاقات مع بريطانيا من جديد ويشدد على تطوير برنامجه في التقشف والكفاية الذاتية للناطقين باللغة الإيريشية. وفي سنة **١٩٣٢** صار رئيس المجلس التنفيذي الإيرلندي.. وفيما بين **١٩٣٧- ١٩٤٤** صار رئيس الدولة.

وسطع نجم دي فاليرا خلال ذلك خارجياً كرئيس لمجلس عصبة الأمم سنة١٩٣٢ ولهيئتها العامة سنة **١٩٣٨** وحين انتهت الحرب الثانية كان وزير خارجية إيرلندا أيضاً حتى سنة **١٩٤٨**. وقامت في هذه السنة ردة فعل عليه. لقد طال عهده في الحكم جداً ولكن التحالف الحزبي الذي قام ضده ما لبث أن تفكك بعد ثلاث سنوات ليعود دي فاليرا رئيساً للوزارة من جديد. كان ذلك ويا للسخرية بعد أن أعلنت إيرلندا رسمياً جمهورية مستقلة حسب القانون الذي وضعه دي فاليرا.

وتداول الرجل الحكم مع زعيم التكتل الحزبي المخاصم كوستلو. ولست تدري بوضوح ما الفرق بين الحزبين سوى الخصومة السياسية المعلنة. ولذلك أعلن دي فاليرا أن حزباً واحداً قوياً يكفي البلاد وأن تحالف الأحزاب الصغيرة يجعلها ضعيفة إن لم يكن يهدد أمنها أيضاً وعلى هذا الأساس نجح سنة ١٩٥٧ بالأكثرية التي طلبها واقتنع سنة **١٩٥٩** بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية فاستقال من رئاسة الحكومة ومن زعامة الحزب الجمهوري الطويلة وانتخب رئيساً للجمهورية الإيرلندية سنة **١٩٥٩** ثم أعيد انتخابه لسبع سنين أخرى سنة **١٩٦٦**.

خطوات طويلة صعبة قضاها هذا اليتيم أكثر من ربع قرن ليصل إلى القمة في بلد لم يكن منها. لكنه رعى توطيدها الدستوري كما رعى نهضتها الحديثة اقتصادياً وثقافياً بعد الحروب الأهلية. وفي حركة التحرر ضد الاستعمار فيها وأصبح رمزاً للتحرر الوطني. حين مات بعد ذلك. عام **١٩٧٥** عن **٩٣** سنة هل تراه مات مطمئناً إلى تخلصه من عقدة اليتم؟

وهل تراه استعرض وهو مغمض العينين طفولته الأولى.

وهل تراه تذكر من يكون أبوه؟ وأين هو ولد؟ وأين انتهي؟؟!!

جان جينيه اليتيم: قديس أم سافل؟

هما زاويتان من زوايا النظر متناقضتان حتى التصادم. ومن أندر النادر في الناس من تختلف فيه زاوية التقويم ١٨٠ درجة! ويصر بعض الناس - ومعهم الحق - أنه سافل سافل في حين يصر آخرون - ومعهم الحق أيضاً - أنه قديس! ذلك الرجل هو الكاتب والشاعر الفرنسي جان جينيه J. Genet الذي لا يعرف لنفسه أباً.. ولا أماً!!

هل هو هذا أم ذاك؟ لم يكن من المتصوفة الذين تختلف عقيدتهم كالحلاج أو السهروردي أو ابن عربي لتتأول له. إنه رجل عادي. آخر ما يفهمه هو الإيمان أو الشطح الميتافيزيكي الذي لايأبه للآخرين. هو ترابي ويعيش على التراب لا يجاوزه أمله و...بأخلاق التراب.

كل ما يخطر ببالك من الموبقات ارتكبه بدم بارد، وبعفوية غريبة وأحياناً بنوع من التحدي ومن الانتحار. ومع ذلك فثمة كبار كبار يعتقدون أنه قديس وشهيد!!

كانت أولى مصائبه التي لا يد له فيها أنه ولد سنة ١٩١٠ لأب مجهول. ثم ما لبثت أمه أن تركته لعناية الإسعاف العام. وهربت فكانت المصيبة الثانية ثم نشأ بين الفلاحين متشرداً فكانت المصيبة الثالثة!

بعد هذه المصائب الثلاث جاء دوره ليراكم مصائبه بنفسه. مبكراً جداً فعل ذلك. كان في العاشرة من العمر فقط حين فوجئ وهو يسرق فأوكل أمره إلى إصلاحية الأحداث التي لم يتعلم فيها إلا أن يكون أكثر

شذوذاً أو شراً وهجومية على العالم. وحين بلغ مبلغ الشباب تطوع في الفرقة الأجنبية الفرنسية. والفرقة ـ لا أراك الله ـ مباءة للمجرمين. لا يتطوع فيها إلا حثالة المجتمعات من كل رجيم هانت عنده القيم أو غلب اليأس أو تساوت الأخلاق مع المفاسد. إنهم يبتلعون فيها مجرمي المجتمعات ليستغلوا عنصر الإجرام فيهم.

ولم تعجبه حياة الجندية في الفرقة. كان التشرد في دمه فهرب منها ليعيش متسولاً، وليكون أثناء التسول سارقاً محترفاً. كل ما يمتلكه الآخرون هو في نظره حلال له. وقبض عليه فسجن ثم قبض عليه فسجن ثم قبض عليه فسجن. لا هو يرتدع ولا القضاة يكلون. أحكام عديدة صدرت بحقه وكل ما نجم عنها أنها زادت ملفه تضخماً.. صار زبون القضاة المعروف وزبون السجون المعروف، لا يخرج من السجن إلا إلى ما تحت الجسور الباريسية أو إلى بعض مأوي الشحاذين أو البغايا. عرفته كل الجسور وكل الأماكن المريبة وكل الغرف المعتمة النتنة قبل أن ينقذه بعض كبار الأدباء أمثال سارتر وكوكتو.

على أنه كان يتلقى كل ذلك كما لو كان قدره المقبول. لا ثورة ولا نقمة ولا ارتداع.. لم يتحول إلى متشائم أسود النظرات أو حاقد أو ثوري. أخذ الحياة كما تأتيه. أهي شر كلها ؟ إذن فليقدس الشر! إنه لا يفهم «القداسة» إلا بواسطة الشر؟ إنه الفضيلة الوحيدة عنده. السرقة هي النزاهة الوحيدة الممكنة. الوشاية الخسيسة هي الشكل الوحيد للعلاقات بين الناس. حبه للمناقضة دفعه إلى امتداح هتلر والغستابو، كامتداحه للسرقة والشذوذ الجنسي.. القديسون الذين سبقوه دخلوا في سجلات الكنيسة وصالونات الأدباء. طوبوا. وسميت بأسمائهم مدن وساحات وخلجان ومؤسسات. أما جينيه فآخر ما كان يفكر فيه أن يضم اسمه إلى هؤلاء. حبه للشر المجنون أخفى اليأس الذي لا يقهر والذي تشعر به حشرة

بشرية من مثله أمام عجزها. التمرغ بالوحل كالخنازير كان طريقته المثلى لشتيمة الحياة. كان يعمل بعناد ضد الطبيعة نفسها لا ضد المجتمع فقط. كأنما يريد أن يقلب كل شيء ليثبت طريقته الملعونة في الإصلاح. وكان غارقاً في جحيمه كما لو كان الجنة. ويهضم خزيه «بدقة خبير بالأغذية». لم يكن قادراً على السمو أو لا يفهمه. ولذلك سعى ليبلغ هذا السمو بشكل سلبي في الظلمات. سعى ليفلسف هذه الظلمات مطمئناً إلى الطريقة الوحيدة لتجاوز الذات. تحديه لكل القيم التي تواضع عليها الناس لم يكن إراديا بقدر ما كان ملتصقاً بطبيعته نفسها. إنه تحدي نفس منحطة تحاول أن تستخرج من انحطاطها كبرياءها الخاص ومجدها السلبي!

وأين المجد والكبرياء في كل هذا؟ لسنا في معرض توزيع جوائز الفضيلة والرذيلة. لو كان جينيه شخصاً من العاديين لمات كأي كلب تحت أحد جسور باريس ولكن جان جينيه كان كاتباً شاعراً ناثراً، في القمة. وهنا يظهر الوجه الآخر لهذا الرجل الرجيم. والذين جعلوه قديساً إنما كانوا ينظرون إليه بمنظار القدرة الفنية والذوق الجمالي. كيف استطاع أن يجمع بينهما لو لم يكن بمستوى القداسة في تحمل الشر داخل ذاته وخارجها؟ سارتر كتب عنه كتاباً سنة١٩٥١ بعنوان: «القديس جينيه، ممثل هزلي وشهيد». جان كوكتو كان يدعوه بصديقي العزيز. الأوساط الأدبية تعتبر مسرحياته: الخادمات، الشرفة، الستائر، السود؛ أو رواياته: الأسير العاشق، مواكب السفن. يوميات سارق، نوتردام الزهر، من روائع الأدب الفرنسي المعاصر بل الأدب الكلاسيكي أيضاً!

آلاف الأميال تباعد ما بين كونه الحيواني والكون البشري. وآلاف الأميال الأخرى تفصل ما بين أسلوبه الكلاسيكي والأسلوب الأدبي الشائع. ومع ذلك فقد قفز إلى مقدمة الكتاب. إن أعماله نوع من

القداس الأسود ذي المظهر الاحتفالي الذي «تصبح فيه السفالة نوعاً من الذخائر الدينية» ولوناً من ألوان «الفداء» للبشر. إنه يجترح كتاب «نودتردام الزهر» مثلاً ليعري هذا العالم المرذول الملوث بالدعارة، من ماديته وليجعله يسقط في أردأ لحظة من لحظاته..إلى حيث يقف الكاتب نفسه. إلى التراب. ولكن. في براءة حالمة وحماسة ملأى بالإشفاق!! إنه «صوفي» الشر بامتياز هذا اليتيم.

وأما نثره فلا يجارى. إنه كاتب النثر الفرنسي الوحيد في النصف الثاني من هذا القرن العشرين. متى بدأ الكتابة؟ بدأها في السجن ومنذ أيامه الأولى. كتبوا عنه حين مات أنه «بين التنكيل والإهانة الجارحة اللتين سيحملهما طويلاً بدأ مشواره الصامت الوحيد، المتفرد، مع الكتابة..» وحين أتلف مدير السجن الصفحات الأولى من كتابه نوتردام الزهر التي يعتبرها بعضهم من أكبر روائع الأدب الفرنسي في هذا القرن، موجهاً بذلك أعنف إهانة للسجين اندس الرجل تحت غطاء الفراش محاولاً تذكر النص الممزق كلمة كلمة. ومن ذا الذي يستطيع منع نفسه من البكاء وهو يقرأ صفحات هذا الكتاب المعجون بالرعب الجميل؟

ولقد كتب جينيه بأسلوب يجعلك تنظر برغمك إلى الوجه الآخر الجميل للشيء. على أنه كان يكتب ليتنفس. يغامر بحياته ليكتب. وكثيراً ما كان يكتب الجارح للأخلاق والشاذ ولكن بقلم فيه العذوبة الناعمة والبيان. وأما الحديث عن الكتابة فكان يقرفه. إنه يعتبر الكتابة تحدياً، كالتحدي الذي يقوم به في السرقة والتشرد والشذوذ. لقد ترك كتباً يخجل الكثيرون من ترجمتها. حتى دور النشر الفرنسية كلها كانت تنشر كتبه «دون أن تشير إلى دار النشر أو مكانه». كانت الكتابة جريمته السرية. إن جينيه يظل أمام عالم الأدب «المحترم» ذلك الجنسي

الشاذ السارق الملعون.. حتى في كتبه ولكنه أيضاً الكاتب الذي لا يجارى في نعومته وحديثه المجنح عن الشر.

يبقى شيء واحد لم نقله بعد عن جينيه؟

كان قلبه يتدفق حباً لكل المظلومين. يذهب معهم إلى أقصى الأرض، يحارب السماء والناس. هكذا وقف مع السود في إفريقيا الجنوبية، ومع العمال العرب المهاجرين في فرنسا ومع المناضلين اليابانيين ومع حركة الفهود السود في أمريكا. جاؤوه مرة يتحدثون عن مأساتهم فقال: «نذهب إليهم. قالوا متى؟ قال فوراً الآن..»

وسافر!

ووقف جينيه مع الجزائر وهي تقاتل ضد فرنسا. غامر بحياته في الكتابة عنها في مسرحية الستائر وثورة الجزائر في أوج الاشتعال. قبل بإخراج المسرحية على مسرح الأوديون في تلك الأمسية المشهورة التي كاد فيها المسرح أن يتحطم! غير أن الحب الذي امتلكه هو الحب للفلسطينيين. كان جينيه أولاً وأخيراً فلسطينياً بامتياز. وما وقف قلم وقفته مع هذا الشعب العربي المنكوب حتى مات. في مقالته الرائعة الأليمة «أربع ساعات في شاتيلا» كتب شهادة للعالم أجمع ضد البرابرة الجدد. وكانت هذه المقالة شهادة انتماء إلى هذا الشعب العربي المشرد. «لقد شعرت بأنني أصبحت فلسطينياً. أكره إسرائيل» لقد تعرف على هذه المأساة سنة ١٩٧٠ زار مخيماتهم وأكواخهم المتداعية. ومنذ ذلك الوقت كان على الدوام معهم يسير بشعره الأشيب بين أزقة المخيمات الموحلة. يتكلم مع الجميع دون وسيط لأنه يعرف الكثير من مفردات الحديث باللهجة المغربية منذ أيام الجندية في الفرقة الأجنبية! يدخل بيوت الفلسطينيين بيتاً بيتاً. يداعب الأطفال. يسكن مع أم فلسطينية عجوز في

بيت تافه يراه شديد الروعة. وكان يتكلم دون انقطاع عن معاناتهم ويدخلها في مسرحياته.

لم يكن يكتب حين يكتب للمسرح ولكن لفلسطين وللمأساة التاريخية الفلسطينية.

كتب في جريدة لوموند وفي النوفيل أوبسرفاتوار وفي مجلة الدراسات الفلسطينية. قالوا له مرة بعد أن قرأ أحدهم رواية «الأسير العاشق» ولكن الفلسطينيين ليسوا كما وصفت فقال: «إني أدافع عن الفلسطينيين لأني أحبهم وكفى». وكان يمكن أن يضيف إذهب إلى مخيماتهم وانظر الفقر الأسود لتضع يديك على جروحهم. لترى عيون عجائزهم الدامية وأقدام الأطفال.. إن كل كتابات جينيه كانت تهدف إلى «تحويل المهانين والمضطهدين المطمورين مع حكاياتهم تحت الإرهاب والاستغلال إلى صوت مسموع مصاغ ومصقول بماء الذهب...».

حين غادر جينيه الحياة لم يترك سوى حقيبة جلدية بالية عليها ورقة بالية هي الأخرى ملصوقة بشريط لاصق وفيها مخطوطته الأخيرة : «ذكريات الأسير العاشق» وفيها يتدفق كالنهر الصافي في عشقه لفلسطين ولرموز الثورة الذين ظل يحبهم حتى لحظاته الأخيرة. لا مكتبة. لا خزانة ملابس لا حساب في البنك. لاعنوان! كان يعيش منذ أمد في غرفة بفندق ليس فيها سوى الحاجات التي لا تساوي بضعة فرنكات. ليس ثمة سوى سبعة كتب وساعة منبهة وحقيبة وثلاثة قمصان...

ـ أهذا كل ما تملك؟

ـ أجل ولماذا ينبغي أن أمتلك أكثر؟ إن فقري هو فقر الملائكة لا تهمني على الإطلاق المواد الجيدة أو الممتلكات الأخرى. لا حاجة تدعوني لأن أمتلك الحاجيات أو أن أعيش في البذخ. إنني أكتب! وهذا يكفيني!!

حين ترك جينيه هذه الأرض إلى باطنها، لم يقل لأحد وداعاً..

نسي أو تناسى هذا اليتيم كل ما على الأرض!

أهو قديس أم شيطان سافل؟؟!!

وهل كان ينتقم هذا اليتيم من ذاته أم من قيم البشر؟!

جمال عبد الناصر اليتيم

وأما جمال عبد الناصر يتيم الأم وعمره ثماني سنوات فهو من تعرفون من الرجال... وكفى!

مع اليتامى

أقبل عليه صاحبه بعد نيف وثلاثين حديثاً وكان في مجلس من الأصحاب، فقال: هذه الخاطرة عن اليتامى حركت قلمك وشغلت أحاديثك الطويلة، أتراها لم تقنعك بعد أن لليتيم دوره في التاريخ؟ لقد استعرضت نماذج شتى من الأيتام. تحدثت عن اليتامى الأسطوريين، وعن اليتامى الأقدمين، وعن اليتامى في التاريخ الإسلامي، وفي تاريخ الصين والهند وأوروبا، وتحدثت عن الأنبياء منهم، ورجال السياسة، وأصحاب العقائد، والكتّاب، والعلماء والروائيين، وأخيراً محرري الشعوب. فهل وجدت فيما قلته خلافاً.

وقاطع صاحبه يقول: مهلاً، مهلاً، الظاهرة تستحق الاهتمام. لكن إنما عرضنا للنماذج المحدودة الملتقطة كالتقاط زهر من حقل ربيعي، من كل واد زهرة، الأمر يحتاج المزيد من الاستقراء. قد نكون استعرضنا بعض الأسماء، ولكن هناك الكثير الكثير غيرهم من اليتامى، الذين لم نستعرض. منهم في السياسيين الأقدمين: تيبريوس ومارك أوريل وهدريان أباطرة روما، ومنهم في التاريخ الإسلامي على الأقل جميع سلاطين المماليك وجميع الأرقاء الذين تسلموا سدة الحكم، ومنهم قيصر بورجيا وكاترين ميدتشي وايراسموس في التاريخ الإيطالي وشارل مارتيل صاحب معركة بلاط الشهداء وروبسبير ودانتون ولافاييت من زعماء الثورة الفرنسية ولويس الرابع عشر والخامس عشر ورشيليو وتيير من الملوك

والرجال في التاريخ الفرنسي، ومنهم الملكة فيكتوريا ولويد جورج وماري ستيورات وبلفور الذي يعرف في التاريخ الإنكليزي، بل ثم عشرات الأسماء في التاريخ الحديث من الأيتام الذين لم تغب أسماؤهم عن الخواطر بعد، منهم هيلا سيلاسي وتشان كاي تشك ومحمد علي باشا وواشنطن ولنكولن في التاريخ الأميركي، وشوإن لاي الصيني وأتاتورك وشامبرلين وغاندي وموتسوهيتو إمبراطور اليابان وهتلر وبتيان ودوفاليرا محرر هولندا وكوبشيك رئيس البرازيل وبيرون الأرجنتيني وجمال عبد الناصر بالإضافة إلى لينين وستالين وخورتشيف.. وتدخل الرفاق يشاركون في الحديث قال أحدهم:

- إنك تعدد السياسين، فهل نسيت العلماء والأدباء والفنانين؟ الموسيقيون الكبار أمثال: بيتهوفن وباخ وشوبان وويبر وواغنر كلهم أيتام. والرسامون الكبار أمثال ميكل أنجلو وروبنس مثله في اليتم. والفلاسفة الكبار من أفلاطون وأرسطو إلى ليبنز وكونت وباسكال وراسل هم بدورهم أيتام. والمفكرون الكبار مثل: بيتسالوتسي، سانت بوف، روسو، رينان، سارتر ديدرو هم من هذا الرعيل.

وتدخل صديق رابع فذكر أهل الأدب من الأيتام. ذكر سعدي الشيرازي ورامبو الشاعر وسويفت وديكنز من الكتاب الإنكليز ومالارميه الشاعر الفرنسي ريلكه الشاعر الألماني وبرنارد شو، وأندريه جيد. وأضاف أديب آخر أسماء تورغنييف الروسي وجوزيف كونراد وألبرت كامو الفرنسي وراسين وموليير وهوغو الشاعر وموياسان القصصي وتولستوي وإدغاربو وبايروثو. كان كل اسم يطرح يلقي بعض الإضافة على الفكرة الأصلية دون أن يمنحها التفسير النهائي، وقلت للصحب: إنما تقدمون قوائم بالأسماء، وقوائم جافة. تمنيت لو كان لنا الوقت لتفحصها والدراسة لعقدها وحياتها. غير أني أقترح أن نبدأ

بالعكس فنسأل عن عدد الذين نجحوا ولم يكن اليتم هو الصوت المعذب وراءهم، عن عدد البارزين الذين لم يكونوا أيتاماً. ألستم ترون أنهم أكثر بكثير؟ ونظر بعضهم إلى بعض وأومأوا برؤوسهم وهم ساهمون كانوا يستعرضون البارزين الآخرين الذين نسوهم في غمرة البحث عن اليتامى.

ولم يطل بنا التأمل الضائع حين أضاف أحد الجلوس، ثم إنكم لا تستطيعون مطلقاً أن تعرفوا بل لا يستطيع إلا الله أن يعرف أعداد اليتامى الذين سحقتهم الحياة فلا خبر عنهم ولا ذكر ولا همسة في أي زاوية. ألستم ترون معي أن اليتم مجرد شعلة، إن لم تلامس ما تفجره ذهبت هباء في هباء؟! إن السر إذن ليس في اليتم ولكنه في الإمكان الكامن بالذات، إنه في الروح القابلة للإبداع وليس في السوط الذي يلسع الروح مهما اشتد هذا اللسع.

وقال صديق، ظل طوال الوقت صامتاً بترقب: لنعترف بأن هذا حق وإني معه، لأحسب أن اليتم هو بمعنى من المعاني قوة سلبية، هو دافع من الدوافع للتعويض وليس يخلق الإمكان أبداً، أنه يحرر القوى الدافعة، وقد يصل بها إلى المستوى الهجومي. ألسنا بهذا نرى تكاثر اليتامى بين السياسيين وبخاصة الثوريين منهم ورعاة التيارات الرافضة، ومبتكري الأفكار والعقائد الجديدة؟

والتقط الخيط صديق شدا بعض الفلسفة ليقول: على أن اليتم لا يقف وحده. لم يكن جنكيز مدمراً للعالم لأنه فقد أباه فحسب، ولا كان أرسطو فيلسوفاً لأنه يتيم، ولا الرسول الأعظم نبياً وصاحب رسالة لأنه امتحن بخسارة الأبوين فحسب. اليتم ثقل إضافي يضاف إلى أعباء الطفل وهو بعد غض. هو إحباط سببه غياب النموذج لما فوق الأنا، غياب نموذج التماهي مع الأب، وهكذا يبحث اليتيم عن نموذج تعويضي

وقد يجده في الله أو في الإبداع الأدبي، أو في التفوق السياسي أو العسكري وقد يبالغ فيه ليصبح نوعاً من الهجومية والتجاوز والتدمير الوحشي. الآسى والشجن والانسحاق التي تولدها حالة اليتم، هي نفسها التي تولد ردود الفعل الهجومية. ولكنها تظهر حسب إمكان اليتيم وظروفه. وقد تكون هذه الردود ذات اتجاهات إبداعية وقد تقود تبعاً لأوضاع التكوين الفيزولوجية أو لتعقيدات الوراثة أو لظروف البيئة أو نوع الدراسة، أو تطورات اللحظة العابرة، أو لظروف المتحولات جميعاً، بل قد تقود إلى الرغبة في السيطرة على المجتمع الذي يعتبر مسؤولاً عن فقد الأب، أو يعتبره اليتيم مسؤولاً عن فقد الأب.

على أن اليتيم ليس على الدوام بعامل إيجابي، ليس كل الأيتام مبدعين أو مبرزين. إن اليتيم قد يكون من الثقل بحيث يسحق تحته صاحبه، يحيله ذرة من الذرات الهالكة من بني الإنسان. الهالكون في هذه المحنة أكثر بكثير وبكثيرجداً من الناجين. تماماً كما هو الأمر مع غير الأيتام.

اليتم نار محرقة، بلى، والنار تحرق الخشب وهفهاف النسيج، ولكنها تجعل الحديد أقوى، تجوهره، أو تصهره ليصبح آلة قاطعة.

وتشعب الحديث بعد ذلك وانفض مجلسنا دون نتيجة، ترى هل استطعت أن تحدد موقفك، أم تراك أضعتنا وأضعناك؟

على أي حال حسبنا أننا ألقينا إليك بقضية طريفة قد تستحق التفكير والمناقشة أم أنك عن كل ذلك في شغل بعيد بعيد؟

وأخيراً...

فهل تريد متابعة المشوار الطويل والبحث في الأيتام؟ هذه قائمة، ليست كل شيء، ولكنها تكفي لتشغلك أياماً طوالاً فيهم إن شئت الانشغال في المشكلة:

١- من يتامى الأب والأم:

- بوليفار المحرر الذي رأيناه يحرر القسم الشمالي من أمريكا الجنوبية مات أبوه في الثالثة من عمره وماتت أمه وهو في التاسعة.

- هتلر أبو النازية وزعيم الرايخ الألماني مات أبوه وهو في الثالثة عشرة وأمه وهو في الثامنة عشرة.

- المارشال بيتان الذي أصبح في الحرب العالمية الأولى، بعد معركة فردان، بطل فرنسا القومي ثم صار في الحرب الثانية خائنها القومي، بسبب تعاونه مع الألمان ماتت أمه وهو في الثانية من العمر ثم هجره أبوه في الرابعة.

- لافاييت، أحد رجال الثورة الفرنسية مات أبوه قبل ولادته وماتت أمه وهو في الثالثة عشرة.

- كاترين دي مديتشي بنت الأسرة الشهيرة في إيطاليا. مات أبوها قبل ولادتها وماتت أمها مع الولادة.

- روبسبيير: دكتاتور الثورة الفرنسية المعروف ماتت أمه وهو في السادسة وهجره أبوه وهو في الحادية عشرة.

- شو إن لاي، رجل الصين الثاني بعد ماوتسي تونغ، توفيت أمه وهو في الثامنة من العمر وأما أبوه فقد تخلى عنه.

- هوشي منه أبوه هجر أمه منذ ولادته وتوفيت الأم وهو في العاشرة.

- دي فاليرا محرر إيرلندا مات أبوه وهو في التاسعة وهجرته أمه.

- بوكاسا الزعيم الإفريقي الذي نعرف. مات كل من أمه وأبيه وهو ما يزال في السادسة من العمر.

٢ـ ومن يتامى الأم:

- لنكولن الرئيس الأمريكي المشهور في حرب الانفصال الأمريكية فقد أمه وهو في الرابعة.

- تشمبرلن رئيس وزراء إنكلترا أول الحرب العالمية فقدها وهو في السادسة.

- نلسون بطل النصر الإنكليزي البحري في ترافلغار (معركة الطرف الأغر ضد الإسبان) فقد أمه في التاسعة.

- جمال عبد الناصر فقد أمه وهو في الثامنة.

- بن غوريون. الزعيم اليهودي الصهيوني فقد أمه وهو في الحادية عشرة.

- الحبيب بورقيبة الزعيم التونسي فقد أمه وهو في العاشرة.

- برتراند راسل الفيلسوف الإنكليزي فقد أمه في العاشرة.

٣ـ ومن يتامى الأب:

- مارك أوريل الفيلسوف الروماني مات أبوه وعمره خمس سنوات.

- شارل الخامس (شارلكان) الذي ملك أكبر إمبراطورية في العالم في القرن السادس عشر مات أبوه وعمره ست سنوات.

- إيفا بيرون، الزعيمة في الأرجنتين، مات أبوها وهي في السابعة.

- الملكة فيكتوريا، ملكة إنكلترا و إمبراطورة الهند، مات أبوها وعمرها سنة واحدة.

- بانشوفيلا الثائر المكسيكي فقد أباه وهو في الخامسة من العمر.

- الملك إدريس ملك ليبيا الأخير فقد أباه وهو في الثامنة من العمر.

- غودريتش الزعيم التشيكي فقد أباه وهو في الرابعة.

- فريدريك الثاني ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا الذي احتضن العالم الإدريسي في القرن الثاني عشر/٦هـ. فقد أباه وهو في الثالثة من العمر.

- كونفوشيوس، فيلسوف الصين العتيق مات أبوه وهو في السنة الأولى من العمر.

- كاليغولا الإمبراطور الروماني المجنون فقد أباه في السابعة.

- نيرون، الإمبراطور الذي أحرق روما، فقده وهو في الثالثة.

- لويس الرابع عشر ملك فرنسا المشهور الذي كان يقول: الدولة أنا. فقد أباه وهو في الخامسة من العمر.

- كوبتشيك الزعيم والرئيس البرازيلي فقده وهو في الثالثة من العمر.

- إيفان الرهيب، قيصر روسيا المعروف، مات أبوه وهو في الثالثة.

- دانتون الزعيم الذي برز اسمه في الثورة الفرنسية. فقد أباه وهو في الثامنة من العمر.

- لويس الخامس عشر، حفيد الرابع عشر، ملك فرنسا الذي تعزى إليه أسباب الثورة الفرنسية خسر أباه وهو في الخامسة.

- ديموستين الخطيب الرائع في آثينا القديمة ذهب أبوه وهو في السابعة.

- بروتوس، ربيب يوليوس القيصر الروماني وقاتله، فقد أباه في الثامنة.

- قيصر بورجيا، سليل أسرة بورجيا المشهورة في البندقية، فقد أباه وهو في السنة الأولى من العمر.

- ماري استورات ملكة إنكلترا التي أعدمت فقدت أباها قبل أن تولد.

- أتاتورك مصطفى كمال مؤسس الجمهورية التركية مات أبوه وعمره تسع سنوات.

- لينين، زعيم روسيا السوفيتية الأول فقد أباه وهو في الخامسة عشرة.

- صارغون الملك العراقي القديم الذي فقد أباه وهو دون العاشرة.

- والأخوة غريم الروائيان الفرنسيان.

- بوكاسا الزعيم الأفريقي، مات أبوه وليس له من العمر سوى ست سنوات.

- كينياتا الزعيم الإفريقي الآخر فقد أباه وهو في الخامسة من العمر.

- ستالين، زعيم الاتحاد السوفيتي الأحمر فقد أباه وهو في الحادية عشرة.

- غاندي الزعيم الهندي، صاحب مذهب اللاعنف فقد أباه وهو في الخامسة عشرة.

- واشنطن، رئيس الولايات المتحدة الأول، فقد أباه وهو في الحادية عشرة.

- تيبريوس الإمبراطور الروماني الذي سميت طبرية باسمه كان في التاسعة حين مات أبوه.

- ليولا الكاتب الفيلسوف الإسباني في القرن الثاني عشر مات أبوه وهو في الخامسة عشرة.

- جنكيزخان، إمبراطور المغول المدمر كان في الثامنة عشرة حين فقد أباه.

- آتيلا زعيم الهانز المغولي الذي غزا أوروبا كلها تقريباً في القرن الخامس للميلاد كان في العاشرة حين فقد أباه.

- سويفت الكاتب الإنكليزي فقد أباه قبل أن يولد.

- موتسوهيتو مؤسس النهضة اليابانية كان في الخامسة عشرة حين فقد أباه.

- هادريان الإمبراطور الروماني كان في التاسعة حين فقد أباه.

- بياليك الشاعر الذي حرر بلاده المجر كان في الخامسة حين مات أبوه.

- جيفرسون، أحد كبار الرؤساء الأوائل في تاريخ الولايات المتحدة فقد أباه وهو في الرابعة عشرة.

- والشاعر الفرنسي جيرار دونيرفال كان في الثامنة.

- جان جوست السياسي الفرنسي الذي أعدم سنة ١٧٩٤ كان في العاشرة حين فقد أباه.

- تشان كان شيك الزعيم الصيني المشهور كان أيضاً في العاشرة حين فقد أبوه.

- هيلاسلاسي إمبراطور الحبشة الأخير فقد أباه وهو في الرابعة عشرة.

- داوود النبي (ابن سليمان) فقد أباه وهو في الخامسة عشرة.

- محمد علي باشا مؤسس نهضة مصر كان في العاشرة حين فقد أباه.

- حمورابي ملك ما بين النهرين القديم وصاحب التشريع كان في الثانية عشرة حين مات أبوه.

أخناتون، فرعون مصر القائل بالتوحيد، كان في الثالثة عشرة حين توفي أبوه.

- قمبيز ملك الفرس القديم كان في الخامسة عشرة حين فقد أباه.
- (أكبر) إمبراطور الهند المغولي المسلم كان في الرابعة عشرة حين مات أبوه.
- موبوتو الزعيم الإفريقي مات أبوه وهو في الثانية عشرة.
- بودلير الشاعر الفرنسي فقد أباه وهو في السادسة من العمر.

٤ـ وممن تيتموا وهم دون الخامسة عشرة:

- ميكل أنجلو عبقري النهضة الأوروبية في الرسم والنحت.
- الرسام الشهير روبنس الفلمنكي (الهولندي) المتوفى سنة ١٦٤٠.
- والموسيقي الألماني ويبر المتوفى سنة ١٨٢٦.
- والموسيقي الألماني الآخر شوبان المتوفى ١٨٥٦.
- والموسيقي المعروف باخ.
- والموسيقي الأطرش العبقري بتهوفن.
- والفيلسوف المتشائم شوبنهور.

٥ـ وممن فقدوا آباءهم وهم أقل من ثماني سنوات:

- الوزير الفرنسي المعروف ريشيلو.
- السياسي الإنكليزي الذي كان سيد التسويات إثر الحرب العالمية الأولى: لويد جورج.
- بلفور صاحب الوعد الصهيوني المشهور باسمه.

٦ـ ومن اليتامى أيضاً:

- الفيلسوف الفرنسي أوغوست كونت صاحب المذهب الوضعي.

- والشاعر الكاتب الأمريكي إدغار ألن بو.
- والموسيقي فاغنر الألماني.
- والمربي السويسري المعروف بتسالوتزي.
- والكاتب الإنكليزي ديكنز.
- والشاعر الإنكليزي جون كيتس.
- والفيلسوف الفرنسي باسكال.
- والفيلسوف الكاتب كيركغارد.
- والفيلسوف الكاتب الإنكليزي برتراندراسل.
- والشاعر الفرنسي المعروف ريلكه.
- والشاعر الفرنسي المعروف رامبو.
- والفيلسوف الفرنسي الكاتب رينان.
- والكاتب الفرنسي صاحب أول موسوعة هناك: ديدرو.
- والكاتب الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر.
- والكاتب الروائي الفرنسي ستاندال.
- والشاعر الفرنسي مالارميه.
- والكاتبة الفرنسية المسترجلة جورج ساند.
- والناقد الفرنسي في القرن الماضي سانت بوف.
- والكاتب الفرنسي المعروف راسين صاحب المسرحيات.
وزميله الكاتب الفرنسي الكوميدي موليير.
- والقصصي الفرنسي المعروف دي موباسان.
- والكاتب الفرنسي في القرن الماضي ألكسندر دوماس.
- والشاعر الفرنسي المشهور فيكتور هوغو.
- والكاتب الفرنسي الآخر آلبير كامو صاحب: الغريب والطاعون.
- والفيلسوف الألماني لينتز.

- والكاتب الإنكليزي سومرست موم.
- والكاتب إيراسموس أحد كبار الرجال في عصر النهضة الأوروبية.
- والفيلسوف الإنكليزي مؤسس المنهج العلمي: فرنسيس باكون.
- والفيلسوف القديم المشهور أرسطو.
- والكاتب الإنكليزي الساخر جورج برناردشو.
- والكاتب الروائي الروسي مكسيم غوركي.
- والكاتب الروسي الروائي الآخر تورغنييف.
- والكاتب الروسي الشهير تولستوي.
- والروائي الروسي الأشهر دوستوديفسكي.
- والكاتب الأمريكي الساخر مارك توين.
- والرئيس الأرجنتيني خوان بيرون (وزوجته أيضاً).
- والشاعر الفارسي المعروف سعدي الشيرازي.

٧- ومن الأولاد غير الشرعيين الذين اشتهروا:

- الزعيم الإندونيسي المحرر سوكارنو.
- إيفا بيرون زوجة الرئيس الأرجنتيني الذي سبق.
- وفيدل كاسترو زعيم كوبا منذ أول سنة **١٩٥٩**(إلى اليوم عام **١٩٩٧**).
- وتيير المؤرخ والزعيم الجمهوري الفرنسي في القرن الماضي.
- وبيزارو الفاتح الإسباني السفاح في أمريكا الوسطى والمكسيك.
- وشارل مارتل صاحب الوقعة الكبرى (بلاط الشهداء= بواتييه).
- وليونارد دافنشي عبقري النهضة الأوروبية الأول.
- وقيصر بورجيا أحد حكام هذه الأسرة في إيطاليا في القرن الخامس عشر.
- والرئيس الأمريكي الأول واشنطن محرر الولايات المتحدة.

- ماري تيودور ملكة إنكلترا.

٨- ومن ابناء الأساطير:

- روMولوس الذي بنى روما في القرن السابع للميلاد.
- حي بن يقظان الذي وجد في جزيرة.
- هرقل بطل لدى الإغريق.
- أوديب ذو المصائب المتلاحقة لدى الإغريق.
- جلجامش بطل القصة الملحمية فيما بين النهرين.
- آمفيون بطل القصة الإغريقية باسمه.
- قورش الملك الفارسي القديم.

٩- ومن مشاهير التاريخ الإسلامي الذين لا يعرفون آباءهم ولا أمهاتهم:

- معظم سلاطين المماليك أمثال: قطز وأيبك والظاهر بيبرس وقلاوون وبيبرس الجاشنكير وبرقوق والمؤيد شيخ، وبرسباي وجقمق وخوشقدم وتمربغا وقايتباي وقانصوه الغوري وجانبولاد وطومان باي.

ومنهم أيضاً:

- ابن حفصون الثائر المتمرد في الأندلس.
- مجاهد العامري الذي سيطر على الحوض الغربي للمتوسط فترة طويلة.
- وطارق بن زياد فاتح الأندلس.
- وطغتكين أتابك دمشق ومؤسس النظام الأتابكي.
- وزنكي والد نور الدين، واضع اللبنات الأولى في الجبهة المقاومة للصليبيين.

ـ وزياد ابن أبيه الذي أستلحقه معاوية بنسبه فكان أبرز ولاته.
ـ وإدريس الثاني مؤسس الدولة الإدريسية في المغرب. وقد مات أبوه وهو بعد جنين في بطن أمه.

١٠ـ ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء من أشبهوا الأيتام بسبب هجر آبائهم أو انفصالهم أحدهم عن الآخر:

ـ لوثر الراهب المشهور مؤسس المذهب البروتستانتي.
ـ كالفان الراهب الآخر صاحب المذهب نفسه في سويسرا.
ـ اسكندر الأكبر قيصر روسيا.
ـ تروتسكي الزعيم الشيوعي المطارد.
ـ سالازار الزعيم البرتغالي والدكتاتور المعروف ما بين النصفين الأول والثاني من هذا القرن.
ـ تيتو زعيم يوغسلافيا المشهور بعد الحرب العالمية الثانية.
ـ موسوليني زعيم إيطاليا ومؤسس الفاشية.
ـ نيكسون رئيس الولايات المتحدة السابق.
ـ الحبيب بورقيبة رئيس تونس وزعيم تحريرها.
ـ فرانكو دكتاتور إسبانيا أكثر من ثلاثين سنة.
ـ غولدا مائير الصهيونية المعروفة في فلسطين.
ـ مازاران الوزير الفرنسي الثعلب الذي خلف ريشبليو.
ـ غامبيتا الزعيم الجمهوري الفرنسي في القرن الماضي.
ـ كليمنصو رئيس الحكومة الفرنسية وأحد واضعي التسويات في أعقاب الحرب العالمية الأولى.
ـ تيمورلنك (تيمورالأعرج) الفاتح المدمر للشرق الأدنى في مطامع القرن ٩هـ/ ١٥م.

- انطيوخوس: القيصر الروماني.

١١- وممن ذاقوا هجر الأبوين دون يتم:

- زعيم الوحدة الألمانية ومهندسها: بسمارك.
- وقائد إنكلترا في الحرب العالمية الثانية إلى النصر : تشرشل.
- والزعيم الفرنسي في الثورة الفرنسية: ميرابو صاحب الكلمة المشهورة لرسول الملك. لقد اجتمعنا هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا تحت أسنة الحراب.
- وكافور، فيلسوف الوحدة الإيطالية وأحد صانعيها.
- وتشي غيفارا الزعيم الثائر، وزميل كاسترو، الذي قتل في بوليفيا.

وآخرين... وآخرين... فصعب إصابة الإحصاء.

كلمة أخيرة

وبعد...

فهل هؤلاء هم كل اليتامى؟..

مضحك أن نقول ذلك. لقد أغرق التاريخ الملايين وطفا فقط بالألوف ممن نعرف. وما هؤلاء إلا لقطات من هنا وهناك أردنا بهم إلى طرح السؤال فقط. ولم نرد إلى الرد على السؤال فتلك مسألة أخرى تحتاج الإحصاء والتحليل.. وقسطاً كبيراً من جهود علماء النفس والتاريخ. وما جمعت هذه النثارات لذلك. إنها ليست سوى قراءات في لحظة فراغ.. قد تفتح لك النور على آفاق أخرى وقد تحمل إليك النعاس قبل النوم.. ويظل السؤال: أليس اليتم بحافز من حوافز التاريخ؟ أليس يقود اليتامى العالم أو على أو قل: بعض هذا العالم؟...

المحتـــوى

اليتامى في التاريخ/شاكر مصطفى .ــ ط ٢ .ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٧ .ــ ١٧٤ص ؛ ٢٠سم .ــ (سلسلة أوراق من التاريخ ؛ ١٣) .

١ ــ ٩٢٠ ع م ص ط ي ٢ ــ العنوان ٣ ــ مصطفى ٤ ــ السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٩٧/٢/١٢١ رقم الإصدار ٧٢٩

رقم : ٢٨٢٣٦
تاريخ : ١٩٩٦/٨/٢١

هذه السلسلة

هي مجرد أوراق متناثرة، كأوراق الخريف لا يجمعها إلا أنَّ من تتحدث عنهم مرُّوا في خاطر الزمن. ثم طواهم الغيب طيَّ السِّجلِّ للكتب. وهي لا تزعم أنها تحمل عِلْماً للمختصين فمدى أطول أوراقها صفحات ثلاث أو أربع. ولا أنها تجترح كشوفاً وأسراراً ما سبقها إليها سابق. فكلها سِيَرٌ لطيوف عبرت الماضي وتركت وراءها الغبار. لكنها تزعم، بلى، إنها طرائف من هنا وهناك وقصص شاردة هي حصيلة عمر من الدراسات ذابت فيها العيون وضاعت على أحرفها الليالي والأقمار وفيها ما فيها من الزاد الثقافي، كَرْماً على درب.

ولقد تكون كتبت ليأنس بها من يحب المعرفة التاريخية أو من يشدو بعض الراحة هرباً إلى عالم الآخرين. لكنها من وراء هذا وذاك تحمل رسالة، إنها دعوة للقراءة السريعة المفيدة. ففي عالم السرعة وزحام المشاغل والوجبات الخفيفة. هذه وجبات ثقافية أسرع وأخف وأمتع!

أتراها تنجح في حمل هذه الرسالة؟